التكاملية المعرفية
والحاجة إلى منظور سنني كوني متوازن*

أ.د. الطيب برغوث

منطلق إشكالية هذه الدراسة:

إن الأسئلة الكبرى التي تشغل هذه الدراسة هي: ما الذي يحكم **ظاهرة المداولة الحضارية** التي تطبع حركة التاريخ البشري بشكل مطرد؟ ما الذي يدفع بهذه المداولة للحركة أحيانا على خط القوة والفعالية والصعود الحضاري؟ وأحيانا أخرى للحركة على خط الضعف والتقهقر الحضاري؟ وحتى على المستوى الفردي والجماعي المحدودين، ما الذي يجعل فردا ناجحا ومؤثرا بشكل إيجابي على نفسه ومحيطه؟ وما الذي يجعل غيره فاشلا ومؤثرا بشكل سلبي في محيطه؟ أو " ناجحا " ولكن تأثيره سلبي على نفسه وعلى محيطه؟ ما هي مقاييس النجاح والفشل؟ ومن أين يستقيها الإنسان ؟.. إلى غير ذلك من الأسئلة المحورية في حياة الإنسان .

إن كل الناس مشغولون بهذه الأسئلة الكبرى، سواء وعوا ذلك أم لم يعوه، وسواء ارتقى وعيهم إلى مستوى التفكير في الظواهر الحضارية الكلية وقوانين المداولة المطردة التي تخضع لها، أم تمحور حول الدوائر الأضيق في

* هذا البحث ملخص من دراسة مخطوطة موسعة حول التكاملية المعرفية والمنظور السنني القرآني الكوني.

الـوعي وهـي دوائـر النجـاح أو الفشـل الـذاتي أو العـائلي والقبلـي والفئـوي أو القطـري المحـدودة. فالكـل مسـكون بهـذا الهـم والاهتمـام المركـزي فـي الحيـاة الدنيوية.

الأفق المنهجي لهذه الدراسة:

وهـذه الدراسـة لـم تخـرج عـن ذلـك الاهتمـام المحـوري، بـل تقـع فـي عمقه، لأنها تحاول البحث عن الإجابة عن هذه الأسئلة الحياتية الكبرى، ليس من منظور فني إجرائي عملي وظيفي، كما هو شائع فيما يعرف بدراسات التنمية البشرية أو تقنيات إدارة وتسيير تفاصيل الحياة اليومية، ولكن من منظور سنني كلي أشـمل، يتـوق إلـى رسـم الإطـار السـنني الكلـي الـذي تنـتظم فيـه كـل تلـك التفاصـيل الإجرائيـة الفنيـة الجزئيـة التـي لا حصـر لهـا، ليـؤدي كـل منهـا دوره بالأصالة والفعالية والتكاملية والاطرادية المطلوبة.

الإجابة عن سؤال المداولة الحضارية:

ومن الخلاصات المهمة التي يخرج بها المتأمل في الخبرات الرسالية والبشرية العامة، كون التوازن الذاتي والاجتماعي للفرد والمجتمع، هو أساس القـوة التـي تقـف وراء نجـاح الأفـراد، وتمكِّـن المجتمعـات مـن تحقيـق نهضـتها ومنَعتها الحضاريتين المنشودتين.

فالأفراد والمجتمعات الأكثر فعالية وتأثيرا ونجاحا، وقدرة على تحقيق المداولة الحضارية الصاعدة، هم الأفراد والمجتمعات الأكثر توازنا .

مفهـوم التـوازن الـذاتي: ونعنـي بـالتوازن الـذاتي هنـا، أن تكـون جميـع ملكـات الفـرد وطاقاتـه فـي نمـاء واسـتثمار تكـاملي مطـرد، وجميـع ضـرورات وحاجات وكماليات حياته في إشباع تكاملي متزايد، وإرادته الحضارية في تألق نفسي وروحي وعملي متواصل.

مفهوم التوازن الاجتماعي: كما نعني بالتوازن الاجتماعي هنا، أن تكون جميع بنيات وطاقات المجتمع الفكرية والثقافية والاجتماعية والحضارية.. في

أحسن حالات فعاليتها وتكامليتها الوظيفية، وفعاليةُ إنجازيتِه الثقافية والاجتماعية والحضارية في نمو تكاملي مطرد، وقدراته الوقائية في تطور وتجدد مستمر، وتأثيره وإشعاعه الجواري أو المحيطي في اتساع متزايد .

هدفية هذا التوازن بالنسبة لكل المجتمعات البشرية: هذا التوازن الذاتي والاجتماعي المتكامل، هو الهدف الذي تكابد كل المجتمعات البشرية من أجل تحقيقه، لأنه الشرط الذي يتوقف عليه ما عداه من الأهداف والغايات الأخرى . فمن أدركه فقد وضع الأساس المتين لنجاحه ولنهضته الحضارية، ومن أخفق فيه من فرد أو مجتمع، فقد أخفق في كل شيء بعد ذلك.

سؤال تحقيق هذا التوازن: والسؤال الكبير الذي يطرح نفسه بقوة بعد هذه الحقيقة، هو: **ما الذي يحقق هذا التوازن الذاتي والاجتماعي التكاملي، الذي يمنح الفرد والمجتمع المزيد من الفعالية التكاملية المؤثرة في النفس والمجتمع والمحيط بدوائره المتسعة من الأسرية والقطرية إلى العالمية والكونية؟** .

ومن الخلاصات المهمة التي يخرج بها المتأمل في الخبرات الرسالية والبشرية العامة، في سياق الإجابة عن هذا السؤال كذلك، كون **التنمية الشاملة المتكاملة** التي تمس كل ملكات الإنسان العقلية والنفسية والروحية والجمسية والسلوكية، وكل بنيات وأبعاد الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والحضارية للمجتمع، وتشحذ الإرادة والفعالية الحضاريتين للمجتمع بشكل تصاعدي مطرد، هي التي تحقق هذا التوازن الذاتي في حياة الفرد، والتوازن الاجتماعي في حركة المجتمع، وترفع فعاليتهما الإنجازية إلى مستوياتها النموذجية القصوى.

سؤال كيفية تحقيق هذه التنمية الشاملة المتوازنة: وهنا أيضا يواجهنا سؤال آخر أكثر أهمية وهو: **كيف تتحقق هذه التنمية الشاملة الفعالة المتكاملة**

المطردة، التي تمس كل ملكات الفرد وبنيات المجتمع، وتحقق شروط شحذ الإرادة والفعالية الحضاريتين للمجتمع بشكل متصاعد ؟

ومن الخلاصات المهمة التي يخرج بها المتأمل في الخبرات الرسالية والبشرية العامة، في سياق الإجابة عن هذا السؤال أيضا، كون **التجديد الشمولي التكاملي** المتوازن، الذي يمس في العمق كل ملكات الفرد وطاقاته، وكذلك بنيات المجتمع الثقافية والاجتماعية والحضارية، ويعيد تأهيله وتكييفه مع متغيرات ومستجدات الحياة المعاصرة له، ويشحذ الإرادة والفعالية الحضاريتين للمجتمع . فبقدر ما يجدد الفرد ذاته، ويجدد المجتمع نفسه، وبقدر ما تُشحذ إرادتمهما وفعاليتهما الحضارية، بقدر ما تتم عملية التنمية المتوازنة لهما أولا، وبقدر ما تعظم فعالية وتكاملية إنجازيتهما الحضارية بعد ذلك ثانيا.

سؤال تحقيق شمولية وتكاملية التجديد: والسؤال الذي يفرض نفسه هنا كذلك هو: **كيف تتحقق شمولية وتكاملية هذا التجديد الذاتي والاجتماعي؟**

ومن الخلاصات المهمة التي يخرج بها المتأمل في الخبرات الرسالية والبشرية العامة، في سياق الإجابة عن هذا السؤال أيضا، كون **التكاملية المعرفية المستوعبة لكل المعارف العلمية السننية** التي تحتاج إليها عملية التجديد، هي التي تنجز هذا التجديد الذاتي والاجتماعي الشامل والمتكامل، وتحقق التنمية الذاتية والاجتماعية المتوازنة، وترفع مستوى فعالية الإنجازية الثقافية والاجتماعية والحضارية للمجتمع. وبدون هذه التكاملية المعرفية السننية، فإنه يستحيل على الفرد أن يجدد ذاته بشكل شامل وعميق ومتوازن، كما يستحيل على المجتمع أن يجدد بنياته الثقافية والاجتماعية والحضارية، أو أن يشحذا إرادتهما وفعاليتهما الحضارية كذلك، ومن ثم لا يمكنهما أن يرفعا مستوى فعاليتهما الثقافية والاجتماعية والحضارية، ويجدان نفسيهما في حالة ضعف وتقهقر وتبعية حضارية أكيدة .

مفهوم المعرفة: بالرغم من التنوع الكبير في محاولات تحديد مفهوم المعرفة، بحسب الحقول والسياقات المعرفية المختلفة، فإن الخلاصة التي يمكن أن يخرج بها المتأمل في هذا الكم الهائل من المفاهيم([1])، تتمحور حول أمرين في غاية الأهمية يشكلان معا صلب المعرفية العلمية . وسأتجاوز هنا الحديث عن الدائرة العامة أو الأولية في مفهوم المعرفة عامة، وهي الدائرة التي لا تقوم على منهج علمي في تحصيل المعارف أو التحقق منها، وهي عادة ما يختلط فيها العلمي بغير العلمي، وينفسح فيها المجال كثيرا للذاتية والظنون والخرافات والأوهام والتقليد([2]).

والمحوران الأساسيان اللذان يرتكز عليهما مفهوم المعرفة عامة هما:

- محور المعرفة باعتبارها مجموعة معلومات علمية صحيحة موثقة، وخبرات ومهارات مكتسبة، موزعة على شتى الحقول المعرفية المختلفة، تتيح لمن يستوفي تحصيلها، والتحكم الفعال في استثمارها، فهمَ الحقل أو المجال المعرفي الذي يتواصل معه من ناحية، وامتلاك القدرة على الاستفادة من معطياته المعرفية في رفع مستوى فعالية مدافعته ومداولته الثقافية والاجتماعية والحضارية من ناحية أخرى.

فالمعرفة هنا تعني العلم الذي هو إدراك أو معرفة الشيء كما هو بدليله. وتبلغ هذه المعرفة سقفها العلمي المطلوب، كلما تطابقت مع الواقع السنني الفطري الذي فطرت عليه الأشياء أو المفردات الكونية عامة، أو اقتربت منه. فالمعرفة العلمية تكتسي صفة العلمية بقدر مطابقتها أو اقترابها من الواقع السنني الفطري للأشياء.

([1]) http://www.marefa.org/index.php

([2]) أحمد علي، مفهوم المعلومات وإدارة المعرفة، مجلة جامعة دمشق، م/28، العدد الأول 2012 .ص/489 (http://www.abahe.co.uk/human-resources-courses/human-resources-2-05.pdf).

- ومحور المعرفة باعتبارها وعيا وحكمة وبصيرة، تمتد إلى فلسفة ومقاصد العلم أو المعرفة، ومنها إلى فلسفة ومقاصد الحياة والوجود، حيث يدرك الإنسان ما في هذه المعرفة من إبداع ونظام وتناسق وحكمة وجمالية فائقة، وغائية مطردة ابتداء، ثم ينطلق منها ليدرك ماهية الحياة والوجود عامة، وماهية وجوده ومركزه الوجودي خاصة، ويضبط حركة حياته على ضوء مقاصد الوجود الإنساني في الأرض أولا، وعلى ضوء شروط تفعيل هذا الوجود ثانيا، باعتبار العلم والمعرفة العلمية عامة، وسيلة لتحقيق فلسفة الحياة ومقاصدها، وليست غاية في ذاتها.

فالمعرفة إذن هي علاقة فهم ووعي بالوجود الكوني والإنساني، في تكوينهما البنيوي أو الهيكلي السنني الذاتي المنتظم، وفي الغايات التي يستهدفها ذلك التكوين السنني البنيوي المنتظم، يكتسبها أو يؤسسها الإنسان من خلال وسائل منهجية متعددة ومتنوعة، بتنوع وتعدد الحقول المعرفية المختلفة، ذات العلاقة الوظيفية بمهمته في الأرض.

مفهوم التكاملية المعرفية: إذا كانت المعرفة هي علاقة فهم ووعي بالوجود الكوني والإنساني، في تكوينهما البنيوي السنني المنتظَم، وفي الغايات المستهدفة من ذلك التكوين السنني البنيوي المنتظَم، فإن التكاملية المعرفية على هذا الأساس، تعني حركة أو عملية انفتاح الحقول المعرفية المختلفة المؤسِّسة لهذا الفهم والوعي على بعضها البعض، واستفادة كل منها من معطيات الآخر، من أجل تطوير القدرات الذاتية لكل حقل معرفي على حدة أولا، وتطوير الحقول المعرفية القطاعية أو النوعية الكلية ثانيا، والوصول عبر ذلك كله إلى تكامل معطيات كل هذه الحقول المعرفية القطاعية أو النوعية الكلية ثالثا، لتحقيق تنمية شاملة لميزانية المعرفة الكلية للإنسانية رابعا.

فالمعرفة العلمية التي تتيح للإنسان فهما للسنن الكلية الناظمة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض وتحكُّما فيها، وتمنحه وعيا بالدلالات العقدية

والحضارية والوجودية عامة، موزعة على حقول معرفية كثيرة، لكل منها طبيعته وخصائصه وحجيته وسلطته، ولا يمكن لأي منها أن يحل محل الآخر أو يعوض وظيفته وحجيته وسلطته . وهذا يعني ضرورة التكاملية المعرفية بين كل هذه الحقول المعرفية، التي ترتكز عليها حركة الخلافة البشرية في الأرض، لتحقيق غاياتها وأهدافها([1]) . فكل حقل معرفي منها يغطي جانبا من جوانب حركة الخلافة البشرية الضرورية أو الحاجية أو التحسينية، ويسد حاجة من حاجاتها الضرورية أو الحاجية أو التحسينية كذلك، ومتى لم تتكامل معطيات كل هذه الحقول المعرفية، فإنه من المستحيل تحقيق هذه الخلافة لأهدافها الحضارية وغاياتها الوجودية بالشكل الإنساني المطلوب .

وبناء على ضرورة هذه التكاملية المعرفية بالنسبة للخلافة البشرية في الأرض، فإن التنمية الشاملة لميزانية المعرفة الكلية للإنسانية، هي التي ستؤدي لا محالة، إلى رفع مستوى الفعالية الإنجازية إلى مدياتها النموذجية القصوى، بالنسبة لكل فرد أو جماعة أو مجتمع أو أمة أو حضارة، تتمكن من الاستثمار الشمولي التكاملي المتوازن لهذه المعطيات المعرفية العلمية الشاملة .

الضرورة القصوى للتكاملية المعرفية:

فشمولية المعرفة السننية وتكامليتها على هذا الأساس، ضرورية جدا لحركة الحياة البشرية الفردية والجماعية والحضارية بصفة عامة، وضرورية جدا كذلك لرفع مستوى الفعالية الإنجازية للفرد والمجتمع والأمة بصفة خاصة، كما يتضح لنا ذلك أكثر من خلال ما يلي:

1. التكاملية المعرفية ضرورية للتكاملية الجسمانية للإنسان.
2. التكاملية المعرفية ضرورية للتكاملية الفكرية للإنسان.
3. التكاملية المعرفية ضرورية للتكاملية النفسية للإنسان([2]).

([1]) طه عبد الرحمن، الحداثة والمقاومة، معهد المعارف الحكمية، بيروت 2007 . ص/54

([2]) محمد قطب، دراسات في النفس الإنسانية، ط7، دار الشروق، بيروت 1983 . ص/71

4. التكاملية المعرفية ضرورية للتكاملية الروحية للإنسان([1]).
5. التكاملية المعرفية ضرورية للتكاملية السلوكية للإنسان([2]) .
6. التكاملية المعرفية ضرورية للتكاملية الاجتماعية للإنسان([3]).
7. التكاملية المعرفية ضرورية للتكاملية الحضارية للإنسان([4]).
8. التكاملية المعرفية ضرورية للتكاملية الكونية للإنسان([5]).

من خلال كل ما سبق، نصل إلى تأكيد نتيجة أساسية مهمة جدا، ألا وهي أن التكاملية المعرفية السننية الشاملة، ضرورة حيوية بالنسبة لحياة الإنسان في ذاته، كما أنها ضرورية بالنسبة له في علاقاته الوجودية الطبيعية والاجتماعية، وفي مهمته الاجتماعية والحضارية في الحياة كذلك .

ولذلك فإنه ليس أمامه خيار إلا أن يتجه نحو وعي شروط تحقيق هذه التكاملية المعرفية السننية الشاملة، ويجتهد في تجسيدها في تطوير وتنمية حياته الذاتية وحياته الاجتماعية والحضارية، وضبط علاقاته الكونية بشكل صحيح غير مصادم لسنن الله سبحانه وتعالى في الكون.

([1]) الراغب الإصفهاني، تفصيل النشأتين وتحصيل الساعدتين، دار مكتبة الحياة، بيروت 1983 . ص/80 .

([2]) الطيب برغوث، المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في مرحلة البناء الفكري والعقدي بمكة، دار قرطبة، الجزائر 2004 . ص/163

([3]) أنظر دراستنا عن: حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الحضارية، دار قرطبة، الجزائر 2004 . ص/9

([4]) ارنولد توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل، المركز القومي للترجمة، القاهرة 2011 . ج1/7

([5]) ما حجم الكون وما مدى صغرنا فيه

http://www.aljazeera.net/news/scienceandtechnology/2014/1/13/

والسؤال المحوري التالي هنا هو: **كيف تتحقق هذه التكاملية المعرفية التي تتيح للفرد والمجتمع تجديد نفسيهما بشكل شامل وعميق وتكاملي ومتوازن وفعال ؟**

ومن الخلاصات المهمة التي يخرج بها المتأمل في الخبرات الرسالية والبشرية العامة، في سياق الإجابة عن هذا السؤال المهم كذلك، كون ذلك كله مرهون بطبيعة المنظور السنني الكوني المرجعي الذي ينطلق منه الإنسان في رؤيته لنفسه، وللحياة، وللعالم، وللكون، ولحركة التاريخ، ولعلاقة كل ذلك بالخالق سبحانه وتعالى الذي يقف وراء ذلك كله .

مفهوم المنظور السنني الكوني التكاملي:

ونقصد بالمنظور السنني الكوني هنا الرؤية المعرفية السننية الكونية الكلية المتكاملة لله والإنسان والحياة والكون، ولشبكة القوانين الكلية التي تحكم حركة الإنسان والحياة والكون، وتضبط العلاقات فيما بينها جميعا، وتنتظم الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض؛ قوة وصعودا وتمكينا، أو ضعفا وتقهقرا وتبعية([1]).

والمنظور الكوني بصفة عامة؛ سننيا كان أم خرافيا، جزئيا أم كليا، دينيا أم وضعيا.. قضية ملازمة للوجود البشري لا تنفك عنه أبدا. فكل إنسان في الحياة لا بد له من رؤية كونية تأسيسية تقوم عليها حياته، وتنبني عليها مواقفه وحركته في الحياة بصفة عامة([2]) . فالفراغ الكوني المحيط بالإنسان، وغريزة حب التساؤل والفهم، والخوف الدائم من المجهول، والحاجة الملحة لامتلاك

([1]) أنظر دراستنا عن: مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافي في ضوء قانون المدافعة والتجديد، طبعة دار قرطبة، الجزائر 2004 .

([2]) العلم في منظوره الجديد، مرجع سابق، ص/ 15

القوة لمواجهة الأخطار.. كل ذلك لا يدع له مجالا بأن لا تكون له رؤية كونية ذاتية أو سننية([1]) .

فالمنظور الكوني المرجعي، إذا كان سننيا وشاملا ومتكاملا ومتوازن الأبعاد، ومنفتحا على كل المنظومات المعرفية السننية في **الآفاق ةالأنفس والهداية والتأييد**، ومستثمرا فيها ومستمرا لها، فإنه هو الذي يدفع الإنسان إلى توسيع دائرة منظوماته المعرفية السننية، لتستوعب كل المعارف السننية التي تحتاجها حركة التجديد الذاتي والاجتماعي، وحركة التنمية الشاملة والمتكاملة لكل ملكات الإنسان وبنيات المجتمع الفكرية والثقافية والاجتماعية والحضارية.

أما إذا كان منظورا مصابا بأعطاب التجزيئية والانكفائية والاستغنائية والتنافرية، ومصادما لفطرة الإنسان وفطرة الكون من حوله، فإنه من غير الممكن أن يعين صاحبه على الانفتاح على معطيات كل المنظومات السننية في **الآفاق وفي الأنفس وفي الهداية وفي التأييد**، بل يحصره في إحداها أو بعضها، ويعزله عن غيرها، وبل يضعه في حالة خصومة معه! فتأتي منظومته المعرفية جزئية إنكفائية استغنائية تنافرية منهكة، لا قدرة لها على توفير شروط تغطية كل ضرورات وحاجات حركة التجديد الذاتي والاجتماعي للفرد والمجتمع كما أسلفنا.

مدخل إلى معالم المنظور المعرفي السنني الكوني المرجعي المتوازن الأبعاد:

والسؤال المحوري المطروح أمام الإشكالية السابقة هو: **ما هو هذا المنظور السنني الكوني المرجعي المتوازن الأبعاد، الذي بوسعه تمكين الإنسان**

([1]) مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة، وأحمد شعبو، دار الفكر، دمشق 1988 . ص/17

من تحقيق التكاملية المعرفية الشاملة والمتوازنة ؟ وهل يوجد فعلا؟ وأين هو؟ وكيف نصل إليه؟

ومن الخلاصات المهمة التي يخرج بها المتأمل في الخبرات الرسالية والبشرية العامة، في سياق الإجابة عن هذا السؤال المهم كذلك، هي أن القرآن بألوهية مصدره، وبسننية منطقه أولا، وبفطرية عقيدته ثانيا، وباستيعابيته الشاملة للخبرات الرسالية التي تتالت عبر التاريخ ثالثا، وبانفتاحيته على رشد الخبرات البشرية التي تراكمت وتتراكم عبر القرون والبيئات والأجيال رابعا، وباحتفائيته البالغة بالعقل الإنساني المتوازن خامسا، وبتنويهه بالحركة الاجتهادية المبدعة سادسا، وبخبراته الثقافية والحضارية التاريخية الغنية المتنوعة سابعا.. هو الذي يستطيع أن يقدم للإنسان المنظور السنني الكوني المرجعي المتوازن الأبعاد، ويضع أمامه إطارا كليا لخريطة المنظومات السننية الكلية الناظمة للصيروات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض .

إن القرآن بانفتاح معطياته المعرفية السننية على المنظومات السننية الكونية الكلية الأربعة، وهي **منظومة سنن الآفاق، ومنظومة سنن الأنفس، ومنظومة سنن الهداية، ومنظومة سنن التأييد**، واعتباره بأن هذه المنظومات مجتمعة ومتكاملة، تشكل " **ميزانية التسخير الكونية** " الموضوعة تحت تصرف الإنسان، لينجز خلافته في الأرض بالفعالية والكفاءة النموذجية المطلوبة، مؤهلٌ في نظرنا نحن المسلمين على الأقل، بأن يقدم للإنسان هذا المنظور السنني الكوني المتوازن الأبعاد، الذي يتوقف عليه تحقيق التكاملية المعرفية المطلوبة في تحقيق عملية التجديد الذاتي والاجتماعي والحضاري، المطلوبة بدورها في عملية تحقيق التنمية المتوازنة التي تمس كل ملكات الفرد وبنيات المجتمع، وتشغِّل كل طاقاتهما، من أجل شحذ الإرادة والفعالية الحضاريتين للمجتمع بشكل متصاعد، المطلوبة بدورها في عملية تحقيق التوازن الذاتي والاجتماعي التكاملي، الذي يمنح الفرد والمجتمع المزيد من الفعالية التكاملية المؤثرة في

النفس والمجتمع والمحيط بدوائره المتسعة من الأسرية إلى القطرية إلى العالمية والكونية .

إننا عندما نعتبر القرآن مؤهَّلا لتقديم هذا المنظور السنني الكوني الكلي المتوازن الأبعاد، فلأنه بالخصائص التي ذكرناها عنه آنفا، يعدُّ دليلا مرجعيا كونيا كليا للإنسان في الكون عامة، يتيح له فهم علاقته بنفسه، وعلاقته بالحياة، وعلاقته بالكون، وموقعه في الحياة والكون، وعلاقته بالله تعالى خالق الكون ومدبره . وهي القضايا الكبرى في المنظور الكوني للحياة، التي بدون تأسيس الوعي الصحيح بها، يظل الإنسان في حالة اضطراب وإرباك، تؤثر سلبا على حياته وعلى كل مستويات العلاقات السابقة.

إن المنظور السنني القرآني الكوني، عندما يتم استيعابه بشمول وعمق، بإمكانه أن يحدث نقلة في التفكير، ونقلة في العقيدة، ونقلة في العبادة، ونقلة في النفس، ونقلة في الروح، ونقلة في السلوك، ونقلة في العلاقات، ونقلة في الإنجاز، ونقلة في الوعي الوقائي الشامل.. على طريق النهضة الحضارية للمجتمع والأمة والإنسانية .

محورية الدين في الحياة والخطأ المفصلي في الحضارة المعاصرة:

وقبل أن نتحدث عن البنية الهيكلية الكلية للمنظور السنني الكوني القرآني، لا بد من التأكيد هنا على الخطأ المفصلي الذي وقعت فيه الحداثة المعاصرة، ألا و**هو تهميش الدين أو تشويهه وتعطيل وظيفته الوجودية أو الحد منها، وحرمان الطاقة العقلية والنفسية الهائلة في الإنسان وإبداعاتها المعرفية والعمرانية الهائلة، من أقوى سند وحافز ومؤطر لها، ألا وهو الدين .**

فبغياب الدين أو الحد من حضوره في مصادر المعرفة الإنسانية المعاصرة، غاب الجواب عن أسئلة الغائية والمعنى والقداسة في الحياة والوجود، وبغياب الغائية والمعنى والقداسة في الحياة والوجود، فقد الإنسان

وفقدت الحياة الجزء الأكثر نبلا في الوجود([1])، بل والأكثر ضرورة للمحافظة على الهوية الإنسانية، وعلى شحذ وتسديد الطاقات الهائلة في الإنسان وفي مقدمتها الطاقة العقلية والعاطفية كما اسلفنا([2]).

نؤكد على هذه المشكلة الكبرى، لأن الإطار الذي نستند إليه في بناء هذا المنظور السنني الكوني المتوازن الأبعاد هو هو إطار ديني ألا وهو القرآن .

وما لم يستعيد الإنسان الوعي بالدين، وما لم يحرَّرَ الدينُ من غواشي التاريخ وسلطة الأعراف والأهواء والأوهام. وما لم ينفذ الإنسان إلى العمق السنني الثابت في الدين، ويعتبرَه هو جوهر الدين وروحه وبنيته الهيكلية العابرة للأزمنة والأمكنة والأوضاع. وما لم يُحدد مجال سلطة الدين وحجيته ونفوذه وفاعليته الوظيفية الأساسية، وموقعه من المنظومة المعرفية البشرية الكلية. وما لم تتخلص المنظومة المعرفية البشرية من الازدواجية أو الثنائية القطبية التنافرية بين العلم والدين، والعقل والعاطفة، فإنه يتعذر بناء المنظور السنني الكوني المتوازن الأبعاد، ومن ثم تتعمق الهوة والنفرة بين الملكات والقدرات الذاتية والكونية الهائلة، التي وُضعت بين يدي الإنسان لينجز خلافته في الأرض بالأصالة والفعالية والتكاملية والاطرادية التاريخية المطلوبة، وتتعمق تبعا لذلك حالة الضناكة النفسية والاجتماعية والحضارية في حياة الإنسان([3])، كما ورد التحذير من ذلك في القرآن منذ بداية الخليقة البشرية في مثل قوله تعالى: **(قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا**

([1]) مارسيل غوشيه، الدين في الديمقراطية: مسار العلمنة، ترجمة شفيق محسن، مركز دراسات الوالحدة العربية، بيروت 2007 . ص/130

([2]) عماد الدين خليل، آفاق قرآنية، ط3، دار العلم للملايين، بيروت 1982 . ص/16

([3]) أنظر بؤس العالم بجزئيه، بير بورديو، ترجمة سلمان حرفوش، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق 2010 .

يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)(طه 123: 124).

إن كل هذا يجعل بناء هذا المنظور السنني الكوني المتوازن، الذي يتجاوز هذا الخطأ المفصلي في المعرفة والحضارة الإنسانيتين المعاصرتين، يشكل أولوية مركزية في حياة كل إنسان عامة، وفي حياة كل فرد في نخبة المجتمع والإنسانية خاصة، وفي حياة النخبة المسلمة بشكل أخص، التي تعتقد بصحة قوله تعالى: (**إن الدين عند الله الإسلام**)(آل عمران: 19)، وقوله سبحانه: (**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**)(آل عمران: 85)، وتؤمن بالوظيفة الحضارية المركزية للأمة، كما جاء تحديدها في قوله تعالى: (**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**)(البقرة : 143).

وهذا ما تحاول هذه الدراسة المساهمة فيه، من خلال محاولة استكشاف بنية وآفاق الإطار العام للمنظور المعرفي السنني الكوني المرجعي، الذي يضعه القرآن بين يدي الإنسان لفهم سير حركة الحياة البشرية خاصة والكونية عامة، والاستفادة من ذلك كله في إدارة حياته الخاصة والعامة بشكل صحيح، متناغم مع فطرته وفطرة الكون من حوله، بعيدا عن كل أنواع وأشكال الثنائية والازدواجية المعرفية والنفسية والروحية والسلوكية والاجتماعية القطبية المتنافرة .

المنظور السنني القرآني يتجاوز إشكالية التجزيئية والاستقطابية التاريخية والآنية الحدية المتنافرة:

وبالرغم من تنوع وحتى تباين الإجابات عن الأسئلة الخاصة **بطبيعة هذا المنظور السنني الكوني المتوازن الأبعاد، وبمقوماته وخصائصه، وهل هو موجود فعلا أو بالإمكان إيجاده ؟ وإذا كان موجودا فكيف نصل إليه ؟**

بالرغم من ذلك التنوع وحتى التباين في الإجابات، إلا أن المنظور القرآني يبقى المنظور الأقوى والأقدر على تقديم هذا التصور أو المنظور السنني الكوني المرجعي المتوازن لحركة الخلافة البشرية في الأرض عامة، ولحركة النهضة الحضارية الإسلامية والإنسانية المعاصرة أو القادمة خاصة، لأن هذا المنظور القرآني بإمكانه تحقيق التكاملية المعرفية المتوازنة، ومن ثم منح الحركة الحضارية للإنسان أصالتها الفكرية والروحية، وفعاليتها السلوكية والاجتماعية، وتكامليتها الحضارية، واطراديتها التاريخية، وهو كل ما تبحث عنه البشرية في كل زمان ومكان .

ونحن لا نقول هذا من باب الإيمان أو العاطفة الدينية فحسب، بل من باب الدراسة والمعرفة والخبرة والمقارنة والتأمل في سنن الاستخلاف البشري في الأرض كذلك . فواقع التجربة التاريخية القوية للإسلام في الحياة من ناحية، والبناء المعرفي السنني الذاتي المتين بل والمعجز للقرآن والسنة من ناحية أخرى، وواقع الحركة الدعوية الاستيعابية التي يقوم بها الإسلام في العالم المعاصر، رغم ضعف وتأخر المسلمين، من ناحية ثالثة*، وتواصل انهيار وخفوت وهج النظريات أو التصورات الفلسفية أو الأيديولوجية الكبرى، وتنامي الحاجة في العالم المعاصر إلى رؤية كونية سننية شمولية تكاملية متوازنة ومتماسكة من ناحية رابعة، وانفتاح الإسلام على عموم رشد الخبرة البشرية وتبنيه لها من ناحية خامسة، وإلحاحه على المحافظة على ثوابت الهوية الإنسانية للإنسان من ناحية سادسة، واحتفائه الكبير بالحركة الاجتهادية الإبداعية التجديدية من ناحية سابعة.. كل ذلك وغيره كثير، يؤهل الإسلام ليقدم هذا المنظور الحضاري السنني الشمولي التكاملي المتوازن والمتماسك لحركة

* أقصد هنا حركة انتشار الإسلام في العالم وتأثيره المتواصل في كل الأوساط والفئات، وخاصة المثقفة منها، التي كلما أتيحت لها فرصة الاتصال الصحيح بالإسلام إلا وكانت نتيجة ذلك الاقتناع به والإقدام على اعتناقه .

النهضة الحضارية الإسلامية المعاصرة، بل ولتصحيح مسار حركة النهضة الحضارية الإنسانية المعاصرة أو القادمة، والسير بها قدما على خط الخيرية والعبودية والعالمية والإنسانية والكونية والمداولة الحضارية التكاملية الصاعدة .

إذا كانت الأديان السماوية السابقة، والعقائد والمذاهب الفلسفية المشتقة منها، قديما وحديثا ومستقبلا، تعاني في عمومها من آفات التجزيئية والتنافرية والجمودية والهلامية، في نظرتها إلى الله والكون والحياة والإنسان وحركة التاريخ وسننه، فإن الإسلام باكتماليته وخاتميته وشموليته وتكامليته وتوازنيته وسننيته، وانفتاحه على رشد الخبرات الرسالية قبله، والبشرية قبله وبعده، واستيعابه وتبنيه لها، قد تجاوز هذه الإشكالية الإنسانية الكبرى، وطرح رؤية أو تصورا أو منظورا كونيا سننيا شموليا تكامليا متوازنا لحركة النهضة الحضارية الإسلامية والإنسانية المعاصرة أو القادمة خاصة، ولفهم حركة الوجود الكوني عامة، والسير وفق ما تقتضيه سننها المطردة .

معالم المنظور السنني القرآني الكوني لتفسير وإدارة حركة التاريخ والحضارة:

وفي سياق رسم صورة عن معالم هذا التصور أو المنظور السنني الكوني القرآني للصيرورات الحضارية لحركة التاريخ والحضارة، أكتفي هنا بالإشارة إلى أن الدراسة الشاملة لمعطيات القرآن والسنة والسيرة النبوية بالخصوص([1])، تفضي بنا إلى أن الصيرورات الحضارية لحركة التاريخ والحضارة، محكومة بطبيعة الوعي الفكري والموقف العملي من معطيات ثلاث

([1]) على من أراد التوسع في الموضوع مراجعة كتبنا: مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية على ضوء نظرية المدافعة والتجديد، والفعالية الحضارية والثقافة السننية، مقدمة في المنظور السنني لتفسير الظاهرة الحضارية، مقدمة في المنظور السنني لدراسة السيرة النبوية .. وغيرها .

منظومات سننية كونية كلية متكاملة، تشكل مداخل محورية كلية لفهم الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، وهي:

مدخل منظومة سنن الاستخلاف وقوانينها الكلية.

ومدخل منظومة سنن التسخير وقوانينها الكلية.

ومدخل منظومة سنن الوقاية الحضارية وقوانينها الكلية.

فأية حركة حضارية قوية صاعدة، أو ضعيفة متقهقرة، نجد تفسيرها الصحيح في هذه الخريطة أو الشبكة السننية الشاملة والمتكاملة التي يعرضها الإسلام لحركة التاريخ والحضارة خاصة ولحركة الوجود عامة. فنحن هنا أمام ثلاثة مداخل بنيوية أو عضوية كبرى لتحليل وتفسير وفهم الظاهرة الحضارية والتحكم في صيروراتها التاريخية . وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، فإنه لا يخفى ما للخرائط والشيكات السننية الكلية المرجعية من أهمية كبيرة في حركة الحياة .

فالناس كلهم يتحركون في حياتهم الفردية والجماعية وفق خرائط وشبكات سننية كلية معينة؛ جزئية كانت أم كلية، صحيحة كانت أم خاطئة، هي التي تحدد في البداية والنهاية، طبيعة واتجاه وجدوى فعاليتهم الاجتماعية في مجتمعاتهم وفي الحياة عامة .

ونحن كمسلمين نعتقد بأن القرآن يضع أمامنا وأمام الإنسان عامة، إطارا كليا عاما لمنظور سنني شمولي تكاملي متوازن الأبعاد، نحاول عرض معالمه الكبرى فيما يلي من خلال هذه المداخل الثلاثة:

مدخل إلى منظومة سنن الاستخلاف وقوانينها العضوية الكلية:

تتشكل هذه المنظومة الكلية من أربعة قوانين كلية متكاملة، هي:

1 - قانون الإبتلاء وتأثيراته الحاسمة على حركة الاستخلاف البشري في الأرض: الذي يتأسس على كون البشر جميعا موضع ابتلاء وامتحان بأمانة الخلافة في الأرض، والسيادة عليها، والعمارة لها .

2 - **قانون المدافعة وتأثيراته الحاسمة على حركة الاستخلاف البشري في الأرض:**

الذي يتأسس على كون الصيرورات أو المداولات الحضارية لحركة التاريخ البشري، في صعودها وتقهقرها، يتحكم فيها قانون المدافعة بشكل مطرد .

2 - **وقانون المداولة وتأثيراته الحاسمة على حركة الاستخلاف البشري في الأرض**: الذي يتأسس على كون المداولة الحضارية هدف غائي لكل إنسان أو مجتمع، فهي القطب الذي تتحرك نحوه حركة المدافعة والتجديد وتستهدف تحقيقه . فالمجتمعات البشرية كلها في أفرادها وجماعاتها وأممها وحضاراتها يحكمها منطق المداولة في أية مرحلة من مراحل نهضتها الحضارية .

3 - **وقانون التجديد وتأثيراته الحاسمة على حركة الاستخلاف البشري في الأرض**: الذي يتأسس على كونه المؤثر الحاسم في المدافعة الثقافية والاجتماعية والحضارية، ومن ثم في حركة المداولة الحضارية المهيمنة على على حركة التاريخ.

والخلاصة هنا هي أن من استوعب موقفه الفكري والعملي طبيعة كل كلية أو منظومة من هذه الكليات أو المنظومات السننية مفردة ومجتمعة، وما تقتضيه من شروط إنجاز وتحقُّقٍ، وطابق حياته مع مقتضيات ذلك، تحركت حياته ونهضته الحضارية باتجاه **الخيرية والعبودية والإنسانية والكونية والمداولة الحضارية التكاملية الصاعدة** . ومن اضطرب موقفه الفكري والعملي من معطيات هذه الكليات أو المنظومات السننية مفردة ومجتمعة، وما تقتضيه من شروط إنجاز وتحقُّق، ولم يطابق حياته مع مقتضياتها، تحركت حياته ونهضته ومداولته الحضارية **باتجاه المادية المتوحشة، أو الروحية المخرِّفة، أو المثالية الحالمة، أو الاستكبارية المفسدة، أو الغثائية والتبعية المهينة** .

وإذا كانت هذه هي الكليات أو القوانين السننية الكلية العامة، التي تحكم مسارات وصيرورات حركة المداولة الحضارية الصاعدة، أو حركة المداولة الحضارية المتقهقرة، فما الذي يتحكم في الوعي الفكري والعملي بهذه القوانين أو الكليات السننية العامة، ويجعل حركة النهضة الحضارية تسير باتجاه المداولة الحضارية التكاملية الصاعدة، أو باتجاه المداولة الحضارية التنافرية المتقهقرة؟

مدخل إلى منظومة سنن التسخير وقوانينها العضوية الكلية:

وهنا تأتي الدائرة الثانية من منظومات القوانين الكلية التي تشكل البعد الوظيفي أو التسخيري في معالم التصور أو المنظور الإسلامي الكلي للصيرورات الحضارية لحركة التاريخ والحضارة . وتتشكل هذه الدائرة من معالم التصور أو المنظور الإسلامي لحركة التاريخ والحضارة، من أربع منظومات سننية كونية كلية متكاملة هي:

1 - **منظومة سنن الآفاق ودورها الحيوي في حركة الاستخلاف البشري في الأرض:** التي تغطي كل الاحتياجات المادية لخلافة الإنسان في الأرض . وهي موضوعة تحت سلطة العقل الإنساني.

2 - **ومنظومة سنن الأنفس ودورها الحيوي في حركة الاستخلاف البشري في الأرض:** التي تغطي كل الاحتياجات الفكرية والثقافية والنفسية والتربوية والاجتماعية والحضارية لخلافة الإنسان في الأرض . وهي موضوعة بدورها تحت سلطة العقل الإنساني .

3 - **ومنظومة سنن الهداية ودورها الحيوي في حركة الاستخلاف البشري في الأرض:** التي تغطي كل الاحتياجات العقدية والروحية والأخلاقية والاجتماعية لخلافة الإنسان في الأرض . وهي سنن وإن كان للعقل دور

أساسي في تلقيها وفهمها والعمل بها، إلا أنه لا سلطة له في اكتشافها أو وضعها ابتداء، لأنها وحي إلهي يتلقاه الناس عبر رسول مبلغ عن الله([1]) .

4 - ومنظومة سنن التأييد ودورها الحيوي في حركة الاستخلاف البشري في الأرض: التي تغطي كل الاحتياجات الاحتياطية التدعيمية الإضافية التي تتطلبها خلافة الإنسان في الأرض([2]). وهي سنن استثنائية تدعيمية يؤيد بها الله سبحانه وتعالى من يحتاج التدعيم الإضافي أو الاستثنائي، بعد أن يستوفي الأخذ بمعطيات المنظومات السننية الثلاثة السابقة، ولا يقوى على مواجهة التحدي الذي يعترضه بشكل فعال .

مدخل إلى منظومة سنن الوقاية الحضارية وقوانينها الكلية:

المتمحورة حول تحقيق الوقاية المبكرة أو المرافقة أو الاستدراكية للفعل، من كل ما من شأنه أن يؤثر سلبا على أصالة وفعالية وتكاملية واطرادية " **دورته الإنجازية** " الكلية .

وكما لا يخفى فإن أخطر ما تتعرض له الحياة الفردية والحركات التغييرية في التاريخ؛ صغيرة كانت أم كبيرة، هو العجز عن حماية هوية وروحية هذا التغيير أو الإصلاح والتجديد، وعدم القدرة على المحافظة على منجزاته، وضمان اطراديته واستمراريته التاريخية([3]).

والمنظور السنني الكوني القرآني استوعب هذا المدخل بشكل شامل وعميق من خلال ثلاثة مداخل أو منظومات فرعية وقائية كبرى هي:

([1]) محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، ط3، عز الدين للطباعة والنشر، بيروت 1406ص/81.

([2]) يمكن مراجعة تفاصيل هذا المنظور في كتب المؤلف التالية: مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية على ضوء نظرية المدافعة والتجديد، والفعالية الحضارية والثقافة السننية، مقدمة في المنظور السنني لتفسير الظاهرة الحضارية، مقدمة في المنظور السنني لدراسة السيرة النبوية .. وغيرها .

([3]) مالك بن نبي، بين التيه والرشاد، ط2، دار الفكر، دمشق 1988 . ص/12

1 – منظومة سنن الوقاية المبكرة ودورها الحيوي في حركة الاستخلاف البشري في الأرض: وهي منظومة تتكفل بتخليص " **الدورة الإنجازية** " للفعل الإنساني المعرفي أو السلوكي أو الاجتماعي أو الحضاري، من النواقص والاختلالات قبل ميلادها الفعلي، حتى يولد أصيلا وفعالا وتكامليا وقابلا للإطراد التاريخي الطويل المدى .

2 – منظومة سنن الوقاية المرافقة ودورها الحيوي في حركة الاستخلاف البشري في الأرض: وهي منظومة تتكفل بمراقبة ومتابعة حركة الإنجاز أو ميلاد الفعل المعرفي أو السلوكي أو الاجتماعي أو الحضاري، والمحافظة على استمرارية أصالته وفعاليته وتكامليته وقابليته للإطرادية التاريخية الطويلة المدى .

3 – منظومة سنن الوقاية الاستدراكية ودورها الحيوي في حركة الاستخلاف البشري في الأرض: وهي تتكفل بالمبادرة إلى استدراك النواقص والأخطاء والاختلالات، في أصالة الفعل أو فعاليته أو تكامليته أو قابليته للإطرادية التاريخية الطويلة المدى، بمجرد أن تتم ملاحظتها واكتشافها والتأكد منها، ولا تعطي للنواقص والأخطاء والاختلالات أية فرصة للنمو والاستفحال والاستعصاء على الحل.

ومن يتأمل في مجموع هذه المنظومات السننية الكونية الكلية الثلاث – أي منظومات سنن الاستخلاف والتسخير والوقاية الحضارية – وفي منظوماتها العضوية المرتبطة بها، يلحظ بأنها لم تترك شيئا تحتاج أو يمكن أن تحتاج إليه الخلافة البشرية في الأرض ولم تستوعبه، بل جاءت مستوعبة لكل حاجات وشروط حركة الاستخلاف البشري في الأرض لتبلغ أقصى درجات رقيها وكمالها البشري، ولا يمكن للإنسان الذي تتسع آفاق وعيه لاستيعاب معطيات كل هذه المنظومات الكونية الثلاث، أن يشعر بأن هناك شيئا ناقصا لم يوفره الله تعالى للخلافة البشرية في الأرض . وفي هذا المعنى جاء في القرآن قوله تعالى

على سبيل المثال: (**وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**)(إبراهيم : 34) .

فـ " **الدورة الإنجازية** " للفعل الإنساني، المؤثر في حركة التاريخ، تنتج لنا فعلا أصيلا وفعالا وتكامليا ومطردا، مؤثرا في حركة التاريخ، ودافعا لها باتجاه النهضة والمداولة الحضارية التكاملية الصاعدة، بقدر ما تستثمر هذه " **الدورة الإنجازية** " للفعل، من معطيات كل منظومة من المنظومات السننية الكونية الكلية الثلاث ومنظوماتها العضوية المرتبطة بها .

كما تنتج لنا كذلك فعلا منقوص الأصالة والفعالية والتكاملية الإطرادية، بقدر ما لا تتمكن هذه " **الدورة الإنجازية** " للفعل، من استثمار أي معطى مطلوب من معطيات أية منظومة من هذه المنظومات السننية الكونية الكلية الثلاثة ومنظوماتها العضوية المرتبطة بها .

فسلبية التأثير في حركة التاريخ وضعفه، أو إيجابيته وقوة تأثيره فيها، هو بقدر ما يُستثمَرُ من معطيات منظومات سنن التسخير الكونية الكلية االثلاث في بناء " **الدورة الإنجازية** " للفعل الإنساني([1]) .

هكذا يلح المنظور الإسلامي لحركة التاريخ والحضارة، على ضرورة استثمار " **الدورة الإنجازية** " للفعل الإنساني، لما هو مطلوب منها، ومتاح لها، من معطيات منظومات **سنن الله في الآفاق وسننه في الأنفس والهداية والتأييد** معا، لتحقيق أصالة هذا الفعل وفعاليته وتكامليته واطراديته. فذلك شرط أساس لنجاح الفعل في تحقيق أهدافه بكفاءة.

وبناء على ذلك، يؤكد هذا المنظور على أنه ليس هناك فعل إنساني مهما كان حجمه أو كانت قيمته، لا تحتاج " **دورته الإنجازية** " إلى معطيات كل هذه المنظومات السننية الكونية الكلية الثلاث ومنظوماتها العضوية المرتبطة بها،

([1]) أنظر التفاصيل في كتابينا: مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية . والفعالية الحضارية والثقافة السننية، طبعة دار قرطبة، الجزائر 2004.

بل هو في حاجة أكيدة إلى ذلك، لكي يستكمل أصالته الفكرية والروحية، وفعاليته الإنجازية، وتكامليته الاجتماعية، ويضمن اطراديته التاريخية. فالفعل الإنساني في المنظور الكوني السنني القرآني، يبلغ أقصى مستويات فعاليته وتأثيره في حركة التاريخ والحضارة، كلما تكاملت كل معطيات المنظومات السننية الكونية الكلية الثلاث ومنظوماتها العضوية المرتبطة بها، في بناء " **دورته الإنجازية** " الكلية، وتضعف فعاليته، وينقص تأثيره، كلما ضعف أو نقص استثماره لأي معطى من معطيات أية منظومات من المنظومات السننية الكلية الثلاثة. هذه هي حقيقة هذا المنظور السنني الكوني المتكامل، الذي يحمله الإسلام للإنسان في كل زمان ومكان.

المنظور السنني القرآني وتصاعد وتائر الفعالية الإنجازية التكاملية:

وإذا كانت الفعالية الإنجازية هي المؤثر المباشر على حركة المدافعة والمداولة الحضارية كما أسلفنا، فإن المنظور السنني القرآني بشموليته وتكامليته وتوازنيته، يرفع هذه الفعالية الإنجازية إلى أعلى مستوياتها النموذجية القصوى، ويتيح بذلك للمجتمع أو الأمة، القدرات المثالية لتحقيق نهضتهما ومداولتهما الحضارية المطلوبة، كما يتضح لنا ذلك من خلال محاولة استعراض المسار السنني لتطور وتائر الفعالية الإنجازية التكاملية للفرد والمجتمع في ما يلي:

منظومة سنن الآفاق والفعالية الإنجازية المحدودة: والمشاهدة العينية المعيشة، والدراسة التاريخية المستفيضة، تؤكدان بأن قوة وفعالية وتأثير الفعل أو النشاط الإنساني الذي يستثمر معطيات منظومات **سنن الأفاق** وحدها، أو منظومات سنن الأنفس وحدها، أو منظومات سنن الهداية وحدها، أو منظومات سنن التأييد وحدها، يكون محدودا، وأحيانا كثيرة يكون لها تبعات غير محمودة على الفرد والمجتمع معا، لأنها قد تستخدم استخداما مضرا بالنفس وبالآخرين وبالطبيعة .

فـامتلاك القـوة السـننية الماديـة بمعـزل عـن بقيـة أنـواع القـوة النفسـية والاجتماعية والروحية الأخرى، يشكل خطرا على الإنسان والطبيعة.

منظومتا سنن الآفاق والأنفس والفعالية الإنجازية الأكثر تأثيرا: كما أن المشاهدة العينية المعيشة، والدراسة التاريخية المستفيضة، تؤكدان كذلك بأن قوة وفعالية وتأثير الفعل أو النشاط الإنساني الذي يستثمر معطيات منظومتي **سنن الآفاق وسنن الأنفس**، تكون أكثر بكثير من فعالية وتأثير الفعل الذي لا يستثمر إلا معطيات منظومة **سنن الآفاق** وحدها . فمنظومة سنن الأنفس تضيف إمكانية سننية أخرى ضرورية للاستثمار الصحيح لمعطيات سنن الآفاق، في رفع مستوى الفعالية الاجتماعية للفرد والمجتمع، وتحسين مدافعتهما ومداولتهما الحضارية . ففعالية وتأثير أداء من يستثمر معطيات منظومة سننية واحدة، لا يمكن أن تكون مثل فعالية وتأثير الذي يستثمر معطيات منظومتين سننيتين كاملتين ومتكاملتين .

منظومات سنن الآفاق والأنفس والهداية والفعالية النموذجية: كما أن المشاهدة العينية المعيشة، والدراسة التاريخية المستفيضة، تؤكدان كذلك بأن قوة وفعالية وتأثير الفعل أو النشاط الإنساني الذي يستثمر معطيات منظومات **سنن الأفاق وسنن الأنفس وسنن الهداية**، تكون أكثر بكثير من قوة وفعالية وتأثير الفعل أو النشاط الإنساني الذي يستثمر معطيات منظومات **سنن الأفاق والأنفس** وحدها .

فمنظومة **سنن الهداية** تضيف إمكانية سننية ثالثة ضرورية لرفع مستوى رشادة وفعالية الإنجاز لدى الفرد والمجتمع معا . فمن يستثمر معطيات ثلاث منظومات سننية كاملة، كاملة في ذاتها ومتكاملة فيما بينها، لا يمكن أن تكون فعاليته وتأثيره مثل فعالية وتأثير الذي يستثمر معطيات منظومتين سننيتين فقط .

منظومات سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد والفعالية النموذجية القصوى: ونفس الوتيرة التطورية المتزايدة في فعالية الإنجاز، تبلغ ذروتها

النموذجية القصوى، مع إضافة معطيات **منظومة سنن التأييد** إلى المنظومات السننية الثلاث الأخرى السابقة .

وكما مر تأكيد ذلك، فإن من يستثمر معطيات أربع منظومات سننية كونية كاملة في بنيتها ومتكاملة فيما بينها، لا يمكن أن تكون كفاءته وفعاليته الإنجازية وتأثيره، مثل كفاءة وفعالية وتأثير الذي يستثمر معطيات ثلاث منظومات سننية فقط . فالفعل الإنساني الفردي أو الاجتماعي الذي تصل " **دورته الإنجازية** " إلى استثمار معطيات منظومة سنن التأييد، بعد استثمارها لمعطيات المنظومات السننية الكونية الثلاثة السابقة، تصل فعاليته الإنجازية إلى مستوياتها النموذجية القصوى.

وقد يتساءل من لا خبرة أو لا وعي له بالأهمية البالغة **لمنظومة سنن التأييد**، عن دور وجدوى هذه المنظومة في تحقيق أصالة وفعالية وتكاملية "**الدورة الإنجازية**" للفعل الإنساني، فنقول بأن هذه المنظومة تحتل مكانة محورية في المنظور الإسلامي لحركة التاريخ والحضارة، لأنها ترافق كل مراحل بناء هذه الدورة، وتوفر لها من الدعم المعنوي والروحي والنفسي والسلوكي والمادي، ما يرقى بفعاليتها الإنجازية إلى أعلى مستوياتها النموذجية القصوى([1]).

فإذا كان الإخلاص والصدق والتجرد وطلب مرضاة الله تعالى، ورجاء الثواب الأعلى من وراء العمل، والتحقق بقيم التقوى وأخلاقها، تشكل دوافع ومشوقات عليا لدى الإنسان لبذل أقصى ما يملك من جهد وطاقة وخبرة وكفاءة، لإتقان هذا العمل وتجويده، ورفع مستوى كفاءته وفعاليته الإنجازية إلى أقصى مستوياتها المكنة، فإن منظومة سنن التأييد هي التي تشحذ الوعي بهذه القيم لدى الإنسان، وهي التي تغذيها في نفسه، وترفع حالته الروحية والأخلاقية

([1]) أنظر دراساتنا عن: مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية في ضوء نظرية المدافعة والتجديد، ص/58، والفعالية الحضارية والثقافة السننية، ص/169

إلى ذرى الإحسان، حيث يعيش مع الله تعالى، ويستشعر حضوره وقربه ورقابته وعونه ومباركته، فيتفانى في الإبداع والإتقان والتجويد لكل ما يضطلع به من أعمال ومسئوليات، تجاه ربه ونفسه ومجتمعه وعالمه، والكون الذي يعيش فيه، كما تفصح عن ذلك مقاصد وآفاق حديث الإحسان الذي جاء فيه: (**أن تعملَ للهِ كأنَّك تراه، فإنَّك إن لم تكُنْ تراه فإنَّه يراك**) . وفي رواية: (**أنْ تعبدَ اللهَ كأنكَ تراهُ، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ**)([1]).

فمن يرتقي وعيه المعرفي، وحالته النفسية والروحية والسلوكية، إلى هذا المستوى من العلاقة الشفافة بالله تعالى، يتحول إلى طاقة إنجازية غير عادية، نلمح صورة منها في حديث الولاية الذي جاء فيه: **(إنَّ اللهَ قال: من عادَى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحربِ، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضتُ عليه، وما يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافلِ حتَّى أُحبَّه، فإذا أحببتُه : كنتُ سمعَه الَّذي يسمَعُ به، وبصرَه الَّذي يُبصِرُ به، ويدَه الَّتي يبطِشُ بها، ورِجلَه الَّتي يمشي بها، وإن سألني لأُعطينَّه، ولئن استعاذني لأُعيذنَّه، وما تردَّدتُ عن شيءٍ أنا فاعلُه ترَدُّدي عن نفسِ المؤمنِ، يكرهُ الموتَ وأنا أكرهُ مُساءتَه**)([2]) .

وكل هذه الفعالية الإنجازية النموذجية، هي من مهمة منظومة سنن التأييد التي ترافق " الدورة الإنجازية " للفعل الإنساني من بدايتها إلى نهايتها، وتوفر لها ثقافة الإحسان وشروطها وأجواءها النفسية والروحية التي تجعل الفعل يخرج إلى الوجود أصيلا فعالا تكامليا قابلا للاطرادية التاريخية الطويلة المدى .

ومن يدرس حركة التاريخ البشري قديما وحديثا، يقف على مصداقية هذه الحقيقة الضخمة، ويدرك السر الجوهري الكامن وراء ظاهرة المداولة الحضارية الصاعدة أو المتقهقرة، التي تجري وفق سنن منضبطة مطردة في

([1]) صحيح البخاري برقم/ 50 و 4777

([2]) صحيح البخاري برقم/6502

الخلق بلا تبدل ولا تحول ولا تعطل، كما يقول الإمام رشيد رضا وهو يعقب على هزيمة المسلمين في أحد: " أن مشيئة الله تعالى في خلقه، إنما تنفذ على سنن حكيمة وطرائق قويمة، فمن سار على سنته في الحرب - مثلا - ظفر بمشيئة الله وإن كان ملحدا أو وثنيا، ومن تنكبها خسر وإن كان صديقا أو نبيا، وعلى هذا يتخرج انهزام المسلمين في وقعة أحد "([1])، وفي جزء من غزوة حنين على سبيل المثال . كما تتخرج كذلك انتصاراتهم المذهلة في بقية الوقائع الأخرى بدءا من بدر وما تلاها . فالكل كان يجري وفق مقتضيات وشروط قانون المدافعة والتجديد وشبكاته السننية المتكاملة، فمن وعى ذلك وطابق نفسه مع تلك المقتضيات والشروط، حقق مداولته الحضارية الصاعدة، ومن جهله أو غفل عنه، أو قصر فيه، قذفت حركة المدافعة الحضارية إلى الوراء. (**سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**)(الأحزاب : 62) .

والخلاصة المهمة التي ننتهي إليها هنا، هي أن الاستثمار لمعطيات كل هذه المنظومات السننية الكونية الكلية المتكاملة، في رفع درجة الفعالية والكفاءة الإنجازية الكلية للفرد والمجتمع إلى أعلى مستوياتها، مرهون بمدى التكاملية المعرفية بين معطيات كل هذه المنظومات السننية الكونية الكلية الأربع. وأن هذه التكاملية المعرفية مرهونة بدورها بمدى شمولية وتكاملية وتوازنية المنظور السنني الكوني الذي يحمله الفرد والمجتمع، وأن شمولية وتكاملية هذا المنظور السنني الكوني مرهونة بدورها بمدى شمولية وسننية الموقف من المنظومات السننية الكونية الكلية الأربع السابقة .

صيغة النظرية الكلية المؤثرة على الصيرورات الحضارية لحركة التاريخ:

وإذا أردت الآن أن ألخص هذا المنظور السنني الكوني الكلي المتكامل الذي يطرحه القرآن الكريم، على صعيد منطق فلسفة التاريخ والحضارة، والمحركات المباشرة لها قوة وضعفا، وصعودا وتقهقرا، وأصوغه في مقولة أو نظرية كلية

([1]) تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1990 . ج116/4

ناظمة لحركة التاريخ والحضارة البشرية، فإنني أقول بأن **حركة التاريخ الحضاري البشري يحكمها " قانون المدافعة والتجديد " من أبسط وأصغر حركة فيها إلى أضخمها وأعقدها** .

والتكاملية المعرفية التي تتسع لتستوعب المعطيات السننية لكل المنظومات السننية الكونية الكلية الثلاث، وما يرتبط بكل منظومة منها من منظومات سننية عضوية تابعة لها، هي التي ترفع مستوى أصالة وفعالية وتكاملية واطرادية المدافعة الحضارية، وتتحرك بها على خط المداولة الحضارية الإنسانية الصاعدة .

كما أن التكاملية المعرفية، التي تتسع لاستيعاب المعطيات السننية لكل المنظومات السننية الكونية الكلية الثلاث، وما يرتبط بكل منظومة منها من منظومات سننية عضوية تابعة لها، هي التي تمكِّن المجتمع من تحقيق الشرط أو البعد الثاني في القانون الكلي لحركة التاريخ، وهو **التجديد** .

فأصالة وفعالية وتكاملية واطرادية **المدافعة الحضارية،** هي باستمرار محصلة طبيعية **لحركة تجديدية** أصيلة وفعالة وتكاملية ومطردة كذلك، تمس تجديد الوعي المفاهيمي والوظيفي أو العملي بالمنظومات السننية الكونية الكلية الثلاث ومنظوماتها العضوية المرتبطة بها .

فالمدافعة والتجديد إذن هما المحركان المباشران للصيرورات التداولية للحركة الاستخلافية البشرية في الأرض، قوة وصعودا ونفوذا ومنعة، أو ضعفا وتقهقرا وغثائية وتبعية ومهانة .

المنظور السنني الكوني القرآني وتحدي التجزيئية والانكفائية والاستغنائية في الثقافة التخصصية الشرعية المعاصرة:

والإشكالية المحورية الكبرى التي تواجه المعرفة الإنسانية المعاصرة هنا، سواء تعلق الأمر بالثقافة الإسلامية أم بالثقافة الغربية المعاصرة، هي انكفائية جل الفروع المعرفية التخصصية في هاتين الثقافتين على نفسها، وعدم انفتاحيتها

على بقية الفروع المعرفية الأخرى، أو على الأقل محدودية هذه الانفتاحية، بل واستغنائية بعض هذه الفروع التخصصية عن ذلك، وتصور أصحابها بأنها مكتفية بذاتها ! وهذا دون شك إشكال كبير يحول دون تحقيق التكاملية المعرفية العامة، التي هي شرط أساس في بناء المنظور السنني الشمولي التكاملي المتوازن الأبعاد من جهة، وتحقيق الاستثمارية المطلوبة لمعطيات المنظومات السننية الكونية الكلية الأربع، الموضوعة تحت تصرف الإنسان لإنجاز خلافته في الأرض، بالأصالة والفعالية والتكاملية والاطرادية المطلوبة من جهة أخرى.

فعندما نتأمل في واقع الثقافة الشرعية التخصصية المعاصرة على سبيل المثال، التي هي جزء هام من الثقافة الإسلامية والإنسانية العامة، سنجدها تعاني فعلا، وإن بنسب متفاوتة، من إشكاليات التجزيئية والإنكفائية والاستغنائية، وتعيشُ بعض أو جل تخصصاتها في عزلة عن الحركية الاجتهادية الإبداعية في بقية الفروع المعرفية الأخرى؛ الإنسانية والاجتماعية والتجريبية، وتعاني من استقطابية حادة من المنتج المعرفي التاريخي، ومن انجذابية مغناطيسية مركزة نحوه، مع أن بعضه كثيرا ما يفقد الكثير من صلاحيته وفعاليته الوظيفية، بل والبعض من صحته أحيانا، بسبب مؤثرات ومتغيرات الزمان والمكان والحال التاريخية التي كانت وراء إنتاجه، ومؤثرات ومتغيرات الزمان والمكان والحال الآنية أو المعاصرة، التي يراد له أن يُفعَّل فيها ويؤثِّر عليها .

وأود هنا أن أذكر ثلاثة نماذج تطبيقية حية عن هذه الانكفائية والاستغنائية والاستقطابية والانجذابية الحادة نحو المنتج المعرفي التاريخي، والذهول بل والغيبوبة أحيانا عن المنتج المعرفي المضاف تاريخيا أو حديثا، وانعكاسات ذلك على الوضع المعرفي العام لمنظومة العلوم الشرعية خاصة، ووضع المجتمع والأمة عامة في عالمها وعصرها .

النموذج تطبيقي الأول: وآخذه من موقف سمعته في بداية ثمانينيات القرن الماضي، من فقيه لامع تخرج حديثا من إحدى الجامعات الشرعية

بالخليج العربي، إزاء العلوم الإنسانية والاجتماعية، فقد قال لي من دون أن ينتبه إلى أنني أنا خريج علوم اجتماعية ! بأن هذه العلوم الاجتماعية لا قيمة لها، ماذا قدمت للإنسان أو المجتمع ؟ وماذا يمكنها أن تقدم لهما ؟ والدليل على أنها غير ذات جدوى، هو موقف المجتمع منها ومن علمائها، فهل رأيت مرة أحدا يأتي ليسأل أحدا من هؤلاء العلماء والباحثين أو يستشيرهم ويستنصحهم ؟ بينما علماء الشريعة لا يتركهم أحد يتنفسون من كثرة طلب الفتوى والمشورة والنصيحة منهم ! فأسررتها في نفسي، لأنني قدَّرت يومها أن مناقشتي له لن تجدي نفعا، وربما زادتنا تعصبا لآرائنا، وتركته للزمن ليريه مدى الأهمية الكبيرة التي تحتلها العلوم الإنسانية والاجتماعية في الحياة الإنسانية، وليتبين له كيف أنها تشكل منظومة سننية كونية كاملة في خريطة المنظومات السننية الكونية الكلية الأربع التي سبق الحديث عنها، وهي **منظومة سنن الأنفس** .

النموذج تطبيقي الثاني: وأخذه من موقف معرفي لشخصية علمية محترمة، من الثقافة المعاصرة، فقد تشرفت بالمشاركة في ندوة الحج الكبرى لموسم سنة 2015، التي ضمت عددا كبيرا من العلماء والباحثين والدعاة، وأهل الوجاهة الاجتماعية والسياسية، وعشنا مع بعض أياما خصبة بالروحانية والأخوة والتعارف والملاقحة العلمية الغنية.

ومن ضمن المواقف الخصبة التي لفتت انتباهي واستفدت منها بطريقة أو أخرى، موقف شخصية علمية نشيطة حيوية، لها باع طويل في خدمة التراث الفقهي تدريسا وتحقيقا وتعريفا ونشرا، رغم حداثة سنها، فقد كنت أستمع إليها على هامش مناقشة ثرية مع بعض الحاضرين حول موضوعات شتى . ومما سمعته من هذا العالم والفقيه الفاضل، اعتزازه بكونه يعيش في عالم فاضل يسكنه العلماء الفطاحل الذين أثْروا الثقافة الإسلامية بأروع الانتاجات المعرفية في أزمنتهم المختلفة، وأنه منعزل عن العالم الآني تماما ولا يتواصل معه إلا في ما هو ضروري جدا ! لأنه عالمَ لا جديد فيه على مستوى لباب العلم والثقافة

الشرعية الأصيلة! وبقدر ما انبهرت بعلمه في المكتبة التراثية، فقد اندهشت بل وحزنت من اعتزازه بالعزلة، وعزوفه عن الخبرة المعرفية المعاصرة في حقولها الإسلامية والإنسانية عامة، وقلت في نفسي كيف تتجدد المعرفة الشرعية وتستجيب لحاجات وتحديات المدافعة الحضارية المعاصرة، إذا كان كل هم علمائنا، أو منتهى طموحهم أن يفهموا ويعيدوا إنتاج ونشر ما سبق من المعارف الشرعية !

وازدادت دهشتي أكثر عندما وجدته لا يثق في علم الفلك المعاصر، ولا يعتبره شيئا مهما، بالرغم من أنه قطع أشواطا بعيدة في العلمية والسننية الدقيقة، في حين يثق في الخبرة الفلكية التقليدية الابتدائية، ويعول عليها كثيرا ويحتج بها، ويحاكم إليها الخبرة الفلكية المعاصرة ! وحزنت أن يكون في علماء الشريعة الشباب، من يعيش في عزلة عن الثورة المعرفية العلمية المعاصرة، ولا يحفل بثوراتها الطفرية التراكمية الهائلة، ويركن إلى معارف ثقافية هي نتف بسيطة بالنسبة لسعة ودقة الثقافة العلمية المعاصرة، وأيقنت بأن هناك خللا بنيويا في المنظومة الثقافية لكثير من حملة العلم الشرعي، بالرغم من أن الثقافة العلمية التجريبية، تنتمي إلى منظومة سننية كونية كلية هي **منظومة سنن الآفاق**، التي تعتبر أوسع المنظومات السننية الكلية الناظمة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، كما سبق بيان ذلك .

النموذج التطبيقي الثالث: وآخذه كذلك من موقف شخصية علمية دعوية مؤثرة، يبدو أن شيئا من أثر ونفوذ الانكفائية والاستغنائية والاستقطابية والانجذابية الحادة نحو المنتج المعرفي التاريخي، والذهول عن المنتج المعرفي المضاف تاريخيا أو حديثا، ما زال له حضوره في منظومته الثقافية .

ففي سياق حديثه عن العلوم المحمودة والعلوم المذمومة، وجه إلى ضرورة عدم تضييع الجهد والوقت والعمر في ما لا فائدة فيه؛ لأن من أذهب عمره في هذه الأمور فهو مذموم . وضرب أمثلة عديدة عن ذلك، أذكر من بينها

قوله عن علم الجغرافيا: " ومن العلوم المذمومة، من أذهبَ عمره وليله ونهاره في بعض الأمور الجزئية **كالجغرافيا**، الناس يتهجدون وهو يبحث عن عاصمة أسبانيا، وأهم المنتجات فيها، وماذا تصدر ؟ وماذا تنتج ؟ ومن هو وزير خارجيتها ؟ ومن تولى ؟ ومتى استقلت ؟ ثم يذهب عمره ويشيب وهو على هذا المستوى، وأين تقع جبال الهملايا، وكم قدماً ترتفع عن البحر ؟ فهذا علم إنما يُعرض للناس، ليبين قدرة الله في الأرض، فمن أذهب عمره فيه فهو مأزور لا مشكور ولا مأجور "([1]) !

إن ضبط الأولويات في تلقي المعرفة أمر مهم جدا، فليس صغار العلم ككباره، وملَحه كصلبه([2])، ولكن مع ذلك التفاوت، فإن لكل منها دوره ومكانه في الفهم والعمل والوقاية، ولذلك لا ينبغي أن يُعرض هذا التفاوت بطريقة توحي بأن بعض العلوم مفيدة وبعضها غير مفيدة، أو أنها مذمومة، لأن ذلك يؤدي إلى التهوين من شأنها والزهد فيها، بالرغم من أهميتها الكبيرة في المجال الذي وجدت من أجل تغطيته . وكما قال الشاعر وهو يتحدث عن دور كبار الريش وصغاره في جناح الطائر، وكيف أن لكل منهما دوره الذي لا يمكن الاستغناء عنه في أداء الجناحين لوظيفتهما بالكفاءة والفعالية المطلوبة:

ولا تَجْعلِ الشُّوْرى عليكَ غَضاضةً فإنَّ الخَوافي قُوَّةٌ للقوادمِ

وتعليقي على مثل هذه الفهوم ينطلق من تعريف العلماء للحكم الشرعي بأنه " خطاب الشارع المتعلق بأفعال المكلفين، طلبا أو تخييرا أو وضعا "([3]) . والسؤال هو كيف نفهم خطاب الله وندرك مراده ؟ وكيف نرتقي بفهم الخطاب الشرعي إلى مستوى كونه منظومة سننية كونية كلية، وليس مجرد أحكام جزئية،

([1]) http://audio.islamweb.net/audio/Fulltxt.php?audioid=19657

([2]) الشاطبي، الموافقات 76/1

([3]) عبد الوهاب خلاف، علم الأصول، ط8، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة (د.ت) . ص/100

أو اجتهادات فرعية آنية ؟ وكيف نفهم المكلف وندرك ضروراته وحاجاته وكمالياته حياته التي يتنزل عليها خطاب التكليف الشرعي ؟ وكيف ننزل هذه المرادات الشرعية على هذه الوقائع الحياتية الفردية والجماعية في الأحوال العادية والاستثنائية ؟

لا شك أن فهم خطاب الله في مقاصده وثوابته وروحه المنهجية، لا بد له من علوم شرعية وإنسانية واجتماعية وتجريبية أو كونية، فهو خطاب مركب تدخل علوم كثيرة في تحليله وفهمه وإدراك مقاصده، وبدون تكامل هذه العلوم المختلفة فإنه يصعب الوصول إلى مرادات خطاب الشارع، وبالتالي يصعب تحقيق مناطاتها بشكل صحيح .

وفهم المكلف وأوضاعه الثقافية والنفسية والاجتماعية، وتنزيل الحكم الشرعي عليهما بشكل صحيح وفعال، يحتاج كذلك إلى علوم شرعية وإنسانية واجتماعية وكونية أو تجريبية متكاملة .

وفهم حركة التاريخ والحضارة، واكتشاف السنن المؤثرة فيها، والتي يتحرك الإنسان في الحياة بناء على مقتضياتها، يحتاج بدوره إلى علوم شرعية وإنسانية واجتماعية وتجريبية أو كونية . فكيف يعقل بعد هذا أن يقول أحد عن علم من هذه العلوم بأنها غير مجدية ؟ وتكون نتيجة ذلك هي تزهيد الأجيال في هذه العلوم التي تقود بها المجتمعات والأمم الحية ركب الحضارة الإنسانية، وتستعلي بها على المجتمعات الضعيفة، وتفرض عليها إرادتها ونماذجها الثقافية والسلوكية والاجتماعية والحضارية، وفي مقدمتها المجتمعات الإسلامية التي تعيش حالة من الغثائية والتبعية وانعدام الوزن الحضاري لم يسبق لها مثيل !؟

والصواب الذي تعززه روح الشريعة وتزكيه، أن يقال بأن هذه العلوم في مجملها علوم مشروعة، ما دامت تخدم أهداف الخلافة البشرية في الأرض بشكل مباشر أو غير مباشر، وترفع مستوى الفعالية الإنجازية للأفراد والمجتمع في مدافعتهم الفكرية والثقافية والاجتماعية والحضارية كما سبق بيان ذلك .

وكما تقول القاعدة الأصولية فإن " ما لا يتم الواجب المطلق إلا به فهو واجب "([1]) . ولذلك فإن الأوفق أن يقال في الموقف من هذه العلوم بأنها علوم تعتريها الأحكام الشرعية الخمسة([2])، وتتحكم في الموقف منها الضرورة أو الحاجة والاستطاعة الراهنة في كل زمان ومكان، ولا نطلق الأحكام الجزافية الذاتية عليها، من غير علم بحقيقتها ومنهجها وأهميتها، والقاعدة المنطقية الأصولية تقول بأن " الحكم على الشيء فرع عن تصوره "([3]).

والدليل الكلي المستوعب لكل هذه العلوم ما هو موجود منها وما سيوجد مستقبلا، هو ما يؤكده القرآن في قوله تعالى: (**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ**)(الأنفال : 60) . يقول الإمام رشيد رضا: " ومن المعلوم بالبداهة أن إعداد المستطاع من القوة يختلف امتثال الأمر الرباني به باختلاف درجات الاستطاعة في كل زمان ومكان بحسبه "([4]) . وهذا الإعداد النوعي الشامل والمتكامل، منطلقه وأساسه وشرطه هو المعرفة العلمية المتخصصة؛ تحصيلا لها عبر العلوم المختلفة، وتطبيقا لها عبر العلوم المختلفة كذلك . **فكل شيئ في ضوء الإسلام ومنطقه المعرفي السنني ينطلق من العلم، وينفَّذ بالعلم، ويتحول إلى علم** . كما نلحظ ذلك في قوله تعالى: (**وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**)(الإسراء : 36) . قال القرطبي: " أي لا تتبع ما لا تعلم ولا يعنيك. قال قتادة: لا تقل رأيت وأنت لم

([1]) رشيد رضا، تفسير المنار 54/10

([2]) محمد أبو زهرة، أصول الفقه، دار الفكر، القاهرة(د. ت) . ص/28

([3]) تقي الدين بن تيمية، مجموع الفتاوى، ط3، تحقيق أنور الباز وعامر الجرار، دار الوفاء 2005 . ج532/10

([4]) نفسه 53/10

تر، وسمعت وأنت لم تسمع، وعلمت وأنت لم تعلم "([1]). وذكر الطبري تعليقا تعليليا مهما يضع النص في سياقه السنني الكلي الذي يُدخِل القول بغير علم في نطاق شهادة الزور، فقال: " لأن القول بما لا يعلمه القائل، يدخل فيه شهادة الزور، ورمي الناس بالباطل، وادعاء سماع ما لم يسمعه، ورؤية ما لم يره "([2]).

فالعلوم التخصصية المختلفة المشكلة للمنظومة المعرفية السننية البشرية الكلية، لا يستغني بعضها عن بعض، كما لا تستغني الحياة البشرية ببعض هذه العلوم عن البعض الآخر، بل هي في حاجة دائمة إلى كل كل هذه العلوم لتحقيق " **دورة إنجازية** " أصيلة وفعالة وتكاملية ومطردة للفعل الإنساني، ومن تقوقع في التخصصية الجزئية وظن بأنه يستغنى بذلك عن بقية التخصصات الأخرى، فهو مخطيء ويضرُّ بذلك نفسه ومجتمعه، ويحرم تخصصه المعرفي من التطور والتكامل الذاتي .

أما بخصوص التجزيئية والانكفائية والاستغنائية بين التخصصات المعرفية الأخرى العلمية والإنسانية والاجتماعية فيما بينها، وبينها وبين العلوم الشرعية، فهي لا تخفى كذلك، وقد سبق الحديث عن بعض ذلك من خلال الشهادات العلمية التي قدمناها لعلماء بارزين في الثقافة الغربية خاصة .

والأخطر في هذه التجزيئية والانكفائية والاستغنائية والاستقطابية التاريخية أو الآنية الحدية، في بعض الحقول والتخصصات المعرفية، يكمن في الموقف من الدين أي من المنظومة السننية الكونية الثاثة، حيث يتواصل إنكار الدين جملة عند بعض النخب، أو إنكار بعض قيمه وأحكامه عند البعض الآخر، أو تهميش دوره في الحياة الفكرية والاجتماعية والحضارية عند كثيرين ممن

([1]) أبو عبد الله محمد القرطبي، الجامع في أحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم طفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة 1964 . ج257/10

([2]) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، السعودية 2001 . 595/14

يؤمنون بالرؤية العلمانية للحياة، فالدين عند هؤلاء جميعا ليس علما، ولا يمكن إدخاله في مجال المنظومة العلمية البشرية.

إن هذا القسم من النخبة الفكرية والسياسية والاجتماعية في المجتمعات الإسلامية والغربية المعاصرة، يقدم بدوره نماذج تطبيقية أخرى عن الجهل بخريطة المنظومات السننية الكونية الكلية الأربع، وعن عدم الوعي بوظيفة كل منظومة منها في حركة التكاملية المعرفية من ناحية، وفي حركة المدافعة والمداولة الثقافية والاجتماعية والحضارية الفعلية من ناحية أخرى.

ونتيجة كل ذلك؛ سواء على مستوى منظومة العلوم الشرعية، أو على مستوى منظومات العلوم التجريبية أو الإنسانية أو الاجتماعية، هي حرمان الحركة المعرفية أولا والحركة الاجتماعية والحضارية ثانيا، من الاستفادة من إمكانات كل المنظومات السننية الكونية الكلية الأربع، والاقتصار على استثمار بعضها فحسب، وهذا يشكل خسارة كبيرة للمعرفة الإنسانية وللحياة الإنسانية الفعلية معا، بل وتترتب عنه مضاعفات خطيرة على مستوى التكامل النفسي والروحي والسلوكي والاجتماعي والحضاري والكوني للإنسان، كما سبق الحديث عن ذلك .

إن كل هذه المعطيات تؤكد لنا في النهاية، مدى الحاجة الملحة إلى إعادة بناء الوعي بخريطة المنظومات السننية الكونية الكلية الناظمة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، من خلال بناء المنظور السنني الكوني الكلي المتوازن الأبعاد، الذي يُخرج المعرفة والثقافة الإنسانية من دوامات التجزيئية والانكفائية والاستغنائية والتنافرية، إلى رحابة الانفتاحية والتواصلية والمثاقفة والتكاملية المطلوبة.

مسئولية النخبة المسلمة تجاه هذه الوضعية وتجاه بناء هذا المنظور وتعميم الوعي به: بعد كل هذه المقدمات والتأسيسات، نخلص إلى نتيجة أساسية هي في نظرنا جوهر الوعي الحضاري ولبه ومفصله المركزي . وتتمثل

هـذه النتيجـة فـي أن الـوعي الحضـاري فـي حقيقتـه، هـو الارتقـاء بفهـم نخـب المجتمع وجمهوره العريض إلى مستوى استيعاب الشبكة أو الخريطة السننية الكونيـة الكليـة العامـة، التـي تتحـرك فـي إطارهـا بقيـة الشـبكات السـننية الجزئيـة الأخرى، وتؤثر في حركة الصيرورات الحضارية الصاعدة أو المتقهقرة لحركة التاريخ البشري في الأرض.

هـذا هـو عمـق الـوعي الحضـاري، أي امـتلاك الإنسـان لمنظـور معرفـي سـنني كـوني كلـي متكامـل ومتـوازن، يحلـل ويفسـر ويستشـرف علـى ضـوئه، الصـيرورات الحضـارية لحركـة التـاريخ البشـري عامـة، ولحركـة نهضـة مجتمعـه وأمتـه خاصـة، ويتفاعـل معهـا بمـا يـدفع بهـا للسـير نحـو المداولـة الحضـارية الصاعدة، وينأى بها عن السير نحو المداولة الحضارية المتقهقرة .

وهذا يعني أن الوعي بالشبكات أو الخرائط السننية الجزئية اللامحدودة، المؤثرة مباشرة على حركة الصيرورات الحضارية الجزئية لحركة التاريخ صعودا وتقهقرا، بمعزل عن الوعي بالشبكة أو الخريطة السننية الكونية الكلية المتوازنة، المـؤطِّرة لهـذا الـوعي السـنني الجزئـي، لا يعـدُّ وعيـا حضـاريا بمفهومـه الشـامل المتكامل الذي تحتاجه حركة الحياة، لأنه بدون الوعي بالشبكة السننية الكونية الكليـة المتوازنـة، يتيـه هـذا الـوعي الجزئـي ويتضـخم ويتشـظى ويتنـافر، ويصـادم بعضه بعضا، وتتيه تبعا له حركة الصيرورات الحضارية وتتنافر، ويصادم بعضها بعضا، وتضطرب وتهتلك، وتسير باتجاه المداولة الحضارية المنهكة المتقهقرة .

وكما سبق أن أوضحنا، فإن الإسلام ببنيته المعرفية والمقاصدية السننية المتكاملـة، خيـر مـن يقـدم للإنسـانية منظومـة شـاملة ومتكاملـة فـي الـوعي بهـذه الخريطـة أو الشـبكة السـننية الكونيـة الكليـة المتكاملـة، التـي تفسـر وتحكـم الصـيرورات الحضـارية لحركـة التـاريخ البشـري، وتسـير بهـا نحـو المداولـة الحضـارية التكامليـة الصـاعدة، وتبعـدها عـن السـير نحـو المداولـة الحضـارية التنافرية المتقهقرة.

أما على الصعيد العملي، فإن هذا لا يمكن أن يحدث، إلا إذا تمكنت النخب الفكرية الجامعية خاصة، والسياسية والاجتماعية عامة، في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، من قراءة القرآن والسنة والسيرة أولا، والتراث الثقافي والحضاري للأمة ثانيا، والخبرة الثقافية والحضارية الإنسانية عامة ثالثا، قراءة سننية شاملة ومتكاملة ومتوازنة، واستخلصت من ذلك كله معالم الخريطة أو الشبكة السننية الكلية للمنظور الكوني السنني الإسلامي المتوازن لحركة التاريخ والحضارة البشريين، وفعَّلته في واقع حياة الأفراد والمجتمع، وتمكنت من عرضه على العالم بطريقة أصيلة وفعالة.

والخلاصة الدقيقة التي ننتهي إليها هنا هي:

أن العلاقة بالقرآن والسنة والسيرة، وعموم الخبرة الثقافية للأمة والإنسانية، أُغرقت في التجزيئية اللامتناهية، التي أخذت فيها الفروع والجزئيات مكانة الأصول الموجِّهة لحركة الفهم والعمل، كما أُغرقت هذه العلاقة من جهة أخرى في المثالية المستعلية على تفاصيل حركة الحياة، مع أن حركة الحياة لا يستقيم أمرها، ولا تؤتي ثمراتها الطيبة المرجوة، إلا بمنظور سنني شمولي تكاملي متوازن الأبعاد، وبفعالية إنجازية نوعية متحكمة في جزئيات الحياة وتفاصيلها إلى أبعد الحدود . فالنظريات المجردة وحدها لا تغير الواقع، مهما كانت قيمتها وجاذبيتها المعرفية، كما أن المنطق العملي أو فعالية الإنجاز وحدها، لا تذهب بعيدا في التغيير الصحيح المتوازن للواقع، بمعزل عن الرؤى والتصورات الكلية لحركة التاريخ والحضارة، وكم من تغييرات طفرية ضخمة كانت لها عواقب وخيمة آنية أو تالية، لأنها لم تستهد برؤية أو منظور سنني كلي متكامل . ولذلك فإن الصحيح دائما، هو أن الفعالية الإنجازية ذات النفَس أو الأفق والأثر الحضاري الطيب المبارك الممتد في التاريخ، هي خلاصة تكامل الرؤية الكونية السننية المتوازنة الأبعاد، مع الكفاءة الإنجازية النوعية المتجددة. فإذا ما اختل إي بعد من هذين البعدين في العملية التغييرية أو الإصلاحية أو

التجديدية، جاءت جزئية مضطربة متنافرة، محدودة النفَس الحضاري الإنساني الكوني، وافتقدت الكثير من خيريَّتها وبركتها تبعا لذلك .

وهذه الإشكالية الكبيرة، ينبغي بل يجب أن تكون من الأولويات الاستراتيجية المهمة في العملية الفكرية والتربوية، التي تضطلع بها النخب الفكرية والاجتماعية والسياسية في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، لإنقاذ حركة النهضة الحضارية المعاصرة للأمة، من أزمة الفشل المزمنة، ثم لتمكين البشرية عامة من الاستفادة من هذه التكاملية المتوازنة بين الرؤية الكونية الكلية ومن ناحية، والإنجازية العملية الفعالة من ناحية أخرى، حتى تخرج بدورها من متاهات هذه الازدواجية التنافرية المنهكة بل والمهلكة أحيانا.

نتائج الدراسة وتوصياتها:

إن نتائج هذه الدراسة، يمكن تلخيصها في النقاط الأساسية التالية:

1. تأكيد كون المعرفة تعني حركة البحث عن سنن الله الناظمة لحركة الوجود البشري والكوني؛ كشفا لها أولا، ومعرفة بالآليات السننية الذاتية لعملها ثانيا، ووقوفا على المعاني المقادصية فيها ثالثا، وتنظيما منهجيا لهذه المعارف الحاصلة، وتيسيرا لطرائق نشرها وتأسيس وعي الناس بها رابعا.

2. تأكيد كون المعرفة ليست غاية في ذاتها، وإنما هي وسيلة شرطية ضرورية لتحقيق الإنسان لخلافته في الأرض على الوجه الصحيح؛ معرفة بحقيقة هذه الخلافة وواجباتها وحقوقها من ناحية، وأداء لهذه الواجبات وتحصيلا لهذه الحقوق على الوجه المطلوب من ناحية أخرى، واستمتاعا بهذه الخلافة على الوجه المطلوب من ناحية ثالثة، وتهيئة للمراحل التالية للخلافة البشرية في الأرض.

3. تأكيد كون كل معرفة لا تحقق مقصدا من هذه المقاصد الكلية أو جزءا منها، أو تضر بأي مقصد من هذه المقاصد الكلية أو بأي جزء منها، لا

تدخل في نطاق المعرفة المطلوبة، وليس في منطق السنن الشرعية أو العقلية ما يدل على استحسانها ومشروعيتها.

4. تأكيد كون التكاملية المعرفية تعني انفتاح الحقول المعرفية المختلفة على المعطيات السننية لبعضها البعض، والاستفادة من ذلك في التطوير الذاتي لكل حقل معرفي على حدة ابتداء، ثم تطوير وإغناء ميزانية المعرفة البشرية الكلية ثانيا، مما يتيح للإنسان إمكانات وخيارات معرفية واسعة للفهم والتفسير والاستشراف، ورفع مستوى فعالية إنجازيته الفكرية والاجتماعية والحضارية .

5. تأكيد كون التكاملية المعرفية تكون شاملة للزمان والمكان، لأن المعرفة والخبرة والحكمة البشرية موزعة عبر الأزمنة والأمكنة على مستوى الأرض والتاريخ، فأينما وجد الإنسان في أي زمان أو مكان فثم تجربة وخبرة ما، يمكن الاستفادة من صوابها وخطئها على السواء . وهذا ما يدعو إليه القرآن البشرية كافة أن تسير في حاضر الأرض وماضيها، لتكتشف سنن الله في الأفراد والجماعات والمجتمعات والأمم والحضارات، أي في سير حركة التاريخ قوة وضعفا. قال تعالى: (**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**)(آل عمران : 137).

6. تأكيد الأهمية بل والضرورة البالغة للتكاملية المعرفية بهذا المعنى، التي لا يتحقق تطوير المنظومة المعرفية البشرية الكلية وتجدُيدها، ولا يتحقق البناء المتوازن لشخصية الإنسان، ولا تطوير وتجديد الفعالية الإنجازية للأفراد والمجتمعات بشكل متوازن وفعال إلا بها . فالتكاملية المعرفية ضرورة للحياة الفردية والاجتماعية، ولعلاقتهما بالطبيعة والكون .

7. تأكيد كون تجزيئية المعرفة وانكفائية واستغنائية بعض تخصصاتها العلمية عن بعض، يشكل خطرا كبيرا على التكاملية المعرفية البشرية ذاتها أولا،

ومن ثم على التكاملية الفكرية والنفسية والروحية والسلوكية للشخصية الإنسانية ثانيا، وعلى التكاملية الاجتماعية والحضارية في الحياة البشرية ثالثا .

8. تأكيد كون تجاوز التجزيئية والإنكفائية والاستغنائية والتنافرية المعرفية، وتحقيق التكاملية المعرفية المطلوبة، تعد الإشكالية المركزية المفصلية في الفكر والحياة الإنسانيين، وخاصة في العالم المعاصر الذي ينحصر فيه مفهوم المعرفة العلمية في ما هو مادي تجريبي فحسب، وما عداه من أشكال المعرفة لا يدخل في نطاق المعرفة العلمية، وهو ما يدعو كل المجتمعات الإنسانية إلى وضعها في مقدمة أولويات منظوماتها الفكرية والتربوية والثقافية.

9. تأكيد كون منظومة العلوم الشرعية المعاصرة، تعاني من إشكالية التجزيئية والإنكفائية والاستغنائية والتنافرية المعرفية، والاستقطابية التاريخية أو التراثية، وإن بنسب متفاوتة بين علم وآخر، وهو ما يعمق عزلتها المعرفية وغربتها الوظيفية في المجتمع الإسلامي المعاصر، وفي العالم المعاصر، ويستدعي عناية كبيرة بإعادة وصل هذه المنظومة بالثقافة الإنسانية المعاصرة .

10. تأكيد كون عرض بعض مفاهيم الإسلام وحقائقه وأحكامه في الواقع المعاصر، بمنطق العرف الفقهي والاجتماعي التاريخي، بمعزل عن متغيرات العرف المعرفي والثقافي والاجتماعي المعاصر ومنطقه من ناحية، وبمعزل عن منطق السننية والتعليلية والمقاصدية من ناحية أخرى، يحول في كثير من الأحيان دون إدراك الإنسان المعاصر غير المسلم، بل وحتى المسلم ! للعمق الفكري والورحي والمصلحي فيما يُعرض عليه، ولا تحدث لديه الهزة أو الانتباهة الإيجابية المطلوبة، بل كثيرا ما يشعر بأن ما هو عليه أفضل بكثير مما يعرض عليه !

11. تأكيد كون هذه التجزيئية والإنكفائية والاستغنائية والاستقطابية التاريخية أو اللحظية التي تعاني منها المنظومات المعرفية المعاصرة عامة، ناجم في عمومه عن غياب منظور سنني كوني متوازن الأبعاد، يقي الفكر الإنساني من

هذه الآفات المنهجية الخطيرة، ويوسع آفاقه لاستيعاب كل ما تحتاجه الخلافة البشري في الأرض من معرفة وثقافة سننية شاملة ومتكاملة .

12. تأكيد الأهمية البالغة لبناء المنظور السنني الكوني المرجعي المتوازن الأبعاد، الذي يحقق التكاملية المعرفية أولا، ويساعد على رسم معالم خريطة المنظومات السننية الكونية الكلية التي تحكم حركة الاستخلاف البشري في الأرض بشكل مطرد ثانيا .

13. تأكيد كون وجود هذا المنظور الكوني المرجعي، حاجة فطرية ملازمة للإنسان، لا يمكنه الاستغناء عنها، بغض النظر عن مصداقية هذا المنظور . فليس هناك إنسان ليس له منظور كوني مرجعي ما حول الله وحول نفسه، وحول الحياة والعالم والكون، وحول حركة التاريخ، يحكم علاقاته بذلك كله، ويكيف مواقفه في الحياة .

14. تأكيد كون المنظور السنني الكوني المتوازن الأبعاد، هو المنظور الذي تجتمع فيه الطبيعتان التجريدية والعملية معا، ويخدم بعضهما بعضا، ولا ينفصل بعضعهما عن بعض، أو ما يسميه البعض بالمنطق العملي أو الفلسفة العملية .

15. تأكيد كون القرآن بشموليته وسننيته واستيعابيته للخبرة الرسالية، وانفتاحيته على رشد الخبرة الإنسانية عامة، يختزن المعطيات المعرفية الضرورية لبناء هذا المنظور السنني الكوني المتوازن الأبعاد، وينفرد بالقدرة على ذلك، إذا تم وعي معطياته السننية بشكل شمولي تكاملي متوازن، من قبل النخب الفكرية في العالم الإسلامي.

16. تأكيد كون الخلاصة المعرفية المتماسكة التي يزودنا بها القرآن في مجال بناء هذا المنظور السنني الكوني المرجعي المتوازن الأبعاد، تتمحور حول ثلاثة مداخل معرفية كلية أساسية هي: **مدخل منظومة سنن الاستخلاف ومنظوماتها العضوية المرتبطة بها، ومدخل منظومة سنن التسخير ومنظوماتها**

العضوية المرتبطة بها، ومدخل منظومة سنن الوقاية الحضارية ومنظوماتها العضوية المرتبطة بها.

17. تأكيد كون الخلاصة المعرفية التي تزودنا بها كل هذه المداخل السننية والمنظومات العضوية المرتبطة بها، هي أن المؤثرات السننية الكلية المباشرة، المحركة للصيروات الحضارية البشرية بشكل مطرد، هي فعالية المدافعة وفعالية التجديد . وعليه فإن القانون الكلي المفسر والمؤطر لحركة التاريخ والحضارة في المنظور السنني القرآني الكوني الكلي، هو قانون " **المدافعة والتجديد** " .

18. تأكيد كون الوعي بهذا القانون الكلي، يحدث تغييرات جذرية في التفكير، ويفرض على الأفراد والمجتمع معا منطق التكاملية المعرفية الشاملة، لأنه بدون هذه التكاملية المعرفية، يستحيل على الفرد والمجتمع معا، تحقيق التجديد الفكري والروحي والسلوكي والاجتماعي والحضاري المطلوب، لرفع مستوى فعالية مدافعتهما الثقافية والاجتماعية والحضارية، ومن ثم يستحيل عليهما تحقيق نهضتهما ومداولتهما الحضارية، وسيجدان نفسيهما في حالة ضعف وغثائية وتبعية حضارية لا مفر منها .

19. تأكيد كون " **الدورة الإنجازية** " للفعل الإنساني؛ فكريا كان أم ثقافيا أم سلوكيا أم اجتماعيا أم حضاريا.. لكي تستوفي شروط أصالتها وفعاليتها وتكامليتها وقابليتها للاطراد، وتؤثر بفعالية وكفاءة على حركة المدافعة والتجديد والمداولة الحضارية، تحتاج باستمرار إلى استثمار ما هو متاح من معطيات منظومات **سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد** مجتمعة وليست مجزئة، وأن أي تقصير في استثمار أي معطى من معطيات هذه المنظومات السننية الكونية الكلية الأربعة، سيؤثر سلبا على أصالة أو فعالية أو تكاملية أو اطرادية " الدورة الإنجازية " لهذا الفعل الإنساني .

20. تأكيد كون الحضارة المادية المعاصرة، لا تستثمر من هذه المنظومات السننية الكونية الكلية الأربعة، إلا منظومتي **سنن الآفاق وسنن الأنفس**، وهي عن منظومتي **سنن الهداية والتأييد** غافلة تماما، ولذلك يأتي فعلها منقوص الأصالة الروحية والأخلاقية، ومعبئ بالفعالية الإهتلاكية، وضعيف التكاملية، ومحدود القدرة الاطرادية، وبمجرد أن يوجد فعل آخر أكثر أصالة وفعالية وتكاملية واطرادية، ينهار أمامه هذا الفعل بسرعة غير متوقعة .

21. تأكيد كون كل منظومة من هذه المنظومات السننية الكونية الكلية الأربعة، لها سلطتها وحجيتها المعرفية والوظيفية الذاتية، في المجال الذي تختص بتغطيته وتلبية حاجاته، ولا يصح أبدا أن يُعتدى على هذه السلطة أو الحجية، أو يُستعاض عنها بسلطة وحجية منظومة سننية أخرى، وأي تجاوز لهذه السلطة أو الحجية الذاتية لأي منها، تترتب عنه عواقب وخيمة تمس ببقية المنظومات الأخرى بنسب متفاوتة، ويمتد ذلك ليطال حياة الإنسان فردا ومجتمعا، إن عاجلا أم آجلا .

22. تأكيد كون هذه المنظومات كلها هي من خلق الله تعالى وصنعه وتسخيره بموازين دقيقة . وصنع الله أو فعله لا يعارض بعضه بعضا، بل هو في حالة تكامل معرفي ووظيفي يخدم بعضه بعضا ويعزز دوره ووظيفته . وهو ما عناه علماؤنا عندما تحدثوا عن درء التعارض بين المعقول والمنقول أي بين صنعه وكلامه سبحانه.

23. التأكيد على أن مفهوم التأصيل الذي تشتعل عليه فئات كثيرة في الثقافة الإسلامية، وهو أمر مهم، ينبغي أن يأخذ هذا التنوع السنني بعين الاعتبار، وأن يتيح الفرصة لكل منظومة سننية لتمارس دورها في عملية التأصيل، وأن لا يتعسف في تسليط منظومة سننية على منظومة أو منظومات سننية أخرى دون مبررات موضوعية محكمة، لتحدَّ من سلطتها وحجيتها وفعاليتها المعرفية والوظيفية أو تصادرها، وتعطل دورها التسخيري في حياة الإنسان .

24. تأكيد الأهمية البالغة لتعميم الوعي بهذا المنظور السنني الكوني المتوازن، على جمهرة النخبة خاصة، وعلى جماهير المجتمع عامة، من أجل استكمال صياغة العقل السنني المتكامل الأبعاد، المتخلص من الازدواجية الفكرية التنافرية، والفائق الفعالية الفكرية والإنجازية .

25. تأكيد الدور الكبير لنخب التخصصات الشرعية للمساهمة في بناء وتعميم الوعي بهذا المنظور السنني الكوني المتكامل . وهذا يقتضي منها انفتاحا على عموم التخصصات الشرعية والاستفادة منها في تحقيق تكوين شرعي متوازن الأبعاد . كما يقتضي منها انفتاحا على الثقافة الإنسانية عامة العلمية والإنسانية، والاستفادة منها توسيع دائرة تكوينها المعرفي وتعميقه .

26. تأكيد ضرورة مساهمة نخب التخصصات الشرعية في جسر الهوة بين الثقافة العلمية والثقافة الإنسانية والاجتماعية من جهة، وبين الثقافة الشرعية أو الإسلامية عامة من جهة أخرى، وتجاوز حالة الازدواجية والاستقطابية الحدِّية التنافرية التي تحكم العلاقة بين الحقلين المعرفيين المهمين .

27. تأكيد ضرورة مساهمة نخب التخصصات المعرفية الأخرى الإنسانية والاجتماعية والعلمية كذلك، في تجسير هذه العلاقة وتحقيق التكاملية المعرفية بين المعطيات السننية لكل المنظومات السننية الكونية الكلية الأربعةالتي سبق الحديث عنها .

28. تأكيد كون تجاوز وضع التجزيئية والإنكفائية والاستغنائية والتنافرية بين المنظومات المعرفية السننية الكونية الكلية الأربعة، الذي أفرزته وكرسته النظرة المادية أو العلمانية عامة للحياة، قد أصبح حاجةً وربما ضرورة وأولوية شرعية ومعرفية وإنسانية ملحة لا تقبل التأخير .

29. التأكيد على الأهمية البالغة كذلك للجهد المعرفي المخبري الجماعي أو المؤسساتي الجاد، هو الطريق الصحيح لتحقيق التكاملية المعرفية الجادة كذلك، لأن الجهد الفردي وحده مهما كانت عبقريته، يبقى محدودا،

وخاصة في عصر الاستبحار الاختصاصي وتشظيه اللامتناهي، الذي لا يجمع شتات معارفه إلا الجهد المنهجي المخبري التكاملي الجاد.

30. الألحاح على إدراج موضوع التكاملية المعرفية على ضوء الرؤية الكلية التي عرضتها هذه الدراسة، ضمن مقاييس الدراسة الجامعية، لتوسيع آفاق الطلبة، وضبط تفكيرهم، وتحفيزهم على الانفتاح على بقية المجالات المعرفية الأخرى والاستفادة منها في تكوينهم المعرفي المتوازن، وفي البناء المتكامل لشخصيتهم، وفي رفع مستوى فعالية إنجازيتهم الاجتماعية . وقد يكون مفيدا جدا لو تمت دراسته في السنة الأولى جامعي كمدخل معرفي منهجي مؤطر للدراسة. أو في السنة الأخيرة من المرحلة الجامعية الأولى، أو في السنة الأولى ماستر، ليكون مدخلا مؤطرا للدراسات الجامعية العاليا .

31. وأتمنى لو أخذت هذه الدراسة كنموذج لهذه المادة الدراسة التي يمكن تسميتها بـ: " **المدخل المنهجي للتكاملية المعرفية** " . أو "**مدخل إلى المنظور السنني للتكاملية المعرفية** " أو " **مدخل إلى المنظور القرآني للتكاملية المعرفية** " أو " **مدخل إلى التكاملية المعرفية** " . وتتمحور مادتها العلمية حول المفهوم والأهمية والمضاعفات والأبعاد والشروط .

32. إن مثل هذه المادة تعالج بشكل فعال إشكالية التفاضلية التنافرية بين العلوم، وتؤسس لوعي تكاملي موضوعي لدى طلبة العلم، يقوم على أساس أن لكل علم وظيفته الأساسية أو التكميلية في البناء المعرفي الإنساني العام، وفي حركة الحياة الثقافية والاجتماعية والحضارية للإنسان، ومن ثم لا ينبغي أن يُفاضلَ بين الحقول المعرفية مفاضلة تنافرية إلغائية أو تهميشية، مضرة بحركة المعرفة وبحركة الحياة معا . وهذا لا يعني أبدا أن يُغفَل عن الأولويات المعرفية في هذا المجال، لأن العلوم متفاوتة الأهمية والفعالية في الوقت نفسه، ومع ذلك فإن الإدراك بأن كل علم أو فن منها له أولويته في مجال ولحظة احتياجنا إليه، أمر في غاية الأهمية، وهو مؤشر على مدى رسوخ الوعي السنني لدى صاحبه.

مراجع الدراسة

1. أبو إسحاق الشاطبي، طبعة عبد الله دارز، المكتبة التجارية، القاهرة.
2. أبو عبد الله محمد القرطبي، الجامع في أحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم طفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة 1964 .
3. أحمد عزة باشا، الدين والعلم، ترجمه من التركية أحمد طاهر، لجنة الترجمة والتأليف والنشر، مصر 1950 .
4. أحمد علي عجيبة، دراسات في الأديان الوثنية القديمة، نشر دار الآفاق العربية، مصر 1414 .
5. أحمد علي، مفهوم المعلومات وإدارة المعرفة، مجلة جامعة دمشق، م/28، العدد الأول 2012 . (http://www.abahe.co.uk/human-resources-courses/human-resources-2-05.pdf
6. ارنولد توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل، المركز القومي للترجمة، القاهرة 2011 .
7. أليكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، ط3، ترجمة شفيق أسعد فريد، مكتبة مؤسسة المعارف، بيروت 1980.
8. أليكسيس كاريل، تأملات في سلوك الإنسان، ترجمة محمود القصاص، ومراجعة محمود قاسم .
9. تقي الدين بن تيمية، مجموع الفتاوى، ط3، تحقيق أنور الباز وعامر الجرار، دار الوفاء 2005 .
10. جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة رقم/ 173، الكويت 1993 .
11. حجم الكون/**http://www.aljazeera.net/news/scienceandtechnology/2014/1/13**
12. الراغب الإصفهاني، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، دار مكتبة الحياة، بيروت 1983 .

13. روبرت م. أغروس، وجورج ن. ستانسيو، العلم في منظوره الجديد، ترجمة كمال خلايلي، سلسلة عالم المعرفة عدد رقم/134، الكويت 1989 .

14. رينيه دوبو، إنسانية الإنسان، ترجمة نبيل صبحي الطويل، مؤسسة الرسالة، الكويت .

15. الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، ط2، تحقيق ودراسة محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس، الأردن 2001 .

16. الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس 1984 .

17. طه عبد الرحمن، بؤس الدهرانية، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت 2014 .

18. طه عبد الرحمن، الحداثة والمقاومة، معهد المعارف الحكمية، بيروت 2007 .

19. الطيب برغوث، الفعالية الحضارية والثقافة السننية، طبعة دار قرطبة، الجزائر 2004 .

20. الطيب برغوث، المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في مرحلة البناء الفكري والعقدي بمكة، دار قرطبة، الجزائر 2004 .

21. الطيب برغوث، حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الحضارية، دار قرطبة، الجزائر 2004 .

22. الطيب برغوث، مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافي في ضوء قانون المدافعة والتجديد، طبعة دار قرطبة، الجزائر 2004 .

23. عبد الحميد ابن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ط3، إعداد توفيق محمد شاهين، ومحمد الصالح رمضان، دار الفكر، بيروت 1979 .

24. عبد الوهاب خلاف، علم الأصول، ط8، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة (د.ت) .

25. عماد الدين خليل، آفاق قرآنية، ط3، دار العلم للملايين، بيروت 1982 .
26. عماد الدين خليل، العلم في مواجهة المادية، قراءة في كتاب حدود العلم لسوليفان، دار ابن كثير 2006 .
27. غوستاف لبون عن دور الأوهام في حركة التاريخ في كتابه: سيكولوجية الجماهير، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، لندن 1991 .
28. غوستاف لبون، سنن تطور الأمم، ترجمة عادل زعيتر، ط2، دار المعارف، القاهرة 1957 .
29. https://ar.wikipedia.org/wiki/علم
30. http://www.marefa.org/index.php
31. فرانسوا شاتليه، تاريخ الأيديولوجيات المعرفة والسلطة، ترجمة أنطون حمصي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق – سورية 1997 .
32. لـ يان سبورك، أي مستقبل لعلم الاجتماع، ترجمة حسن منصور الحاج، مجدد المؤسسة الجامية للدراسات والنشر، بيروت 2002 .
33. مادلين غراويتز، مناهج العلوم الاجتماعية، الكتاب الثاني، ترجمة سام عمار، المركز العربي للتدريب والترجمة، دمشق – سورية 1993
34. مالك بن نبي، شروط النهضة، ط4، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق 1987 .
35. مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة، وأحمد شعبو، دار الفكر، دمشق 1988.
36. مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، ط2، دار الفكر، دمشق 1988 .
37. مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، دار الفكر، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق 1986 .
38. مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ط4، ترجمة عبد الصبور شاهين، ار الفكر، دمشق 2000 .
39. محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، المكتبة السلفية 1400 .

40. محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، السعودية 2001 .

41. محمد أبو زهرة، أصول الفقه، دار الفكر، القاهرة(د. ت) .

42. محمد الحسيني إسماعيل، الإنسان والدين، مكتبة وهبة، القاهرة 2007 .

43. محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، ط3، عز الدين للطباعة والنشر، بيروت 1406 .

44. محمد رشيد رضا، تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1990.

45. محمد قطب، دراسات في النفس الإنسانية، ط7، دار الشروق، بيروت 1983.

46. محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، ط3، دار الشروق، بيروت (د.ت) .

47. محمد قطب، الإنسان بين المادية والإسلام، ط10، دار الشروق، بيروت 1989 .

48. ولتر ستيس، الزمن والأزل: مقال في فلسفة الدين، ترجمة زكريا إبراهيم، مراجعة أحمد فؤاد الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2013 .

49. موقع dorar:net

50. المكتبة الشاملة.